

٦

أضواء



أضواء على الحياة

2274
87511
.311

2274.87511.311

Shākir

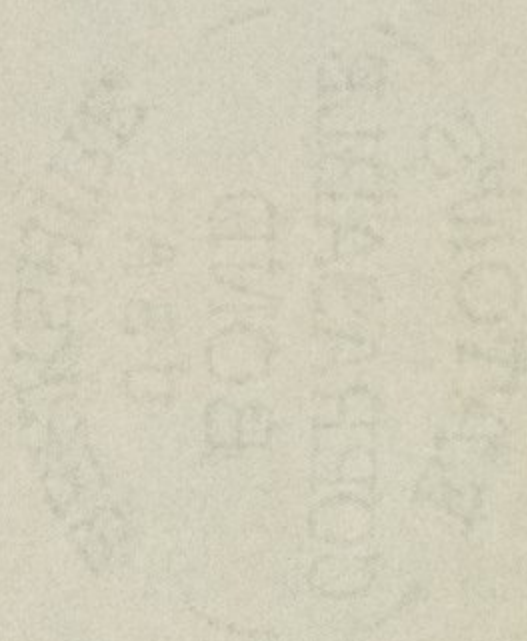
Aḍwā' 'alā al-Ḥabashah

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library



32101 074328624



اخترت لك ...

Adwā' ʿala al-Habāshah

أضواء على الحبسة

اشترك في إعداد هذا الكتاب :

• أمين شاكر *Amīn Shākir*

• سعيد المريان

• مصطفى أمين

ملتزم الطبع والنشر

دار المعارف بمصر

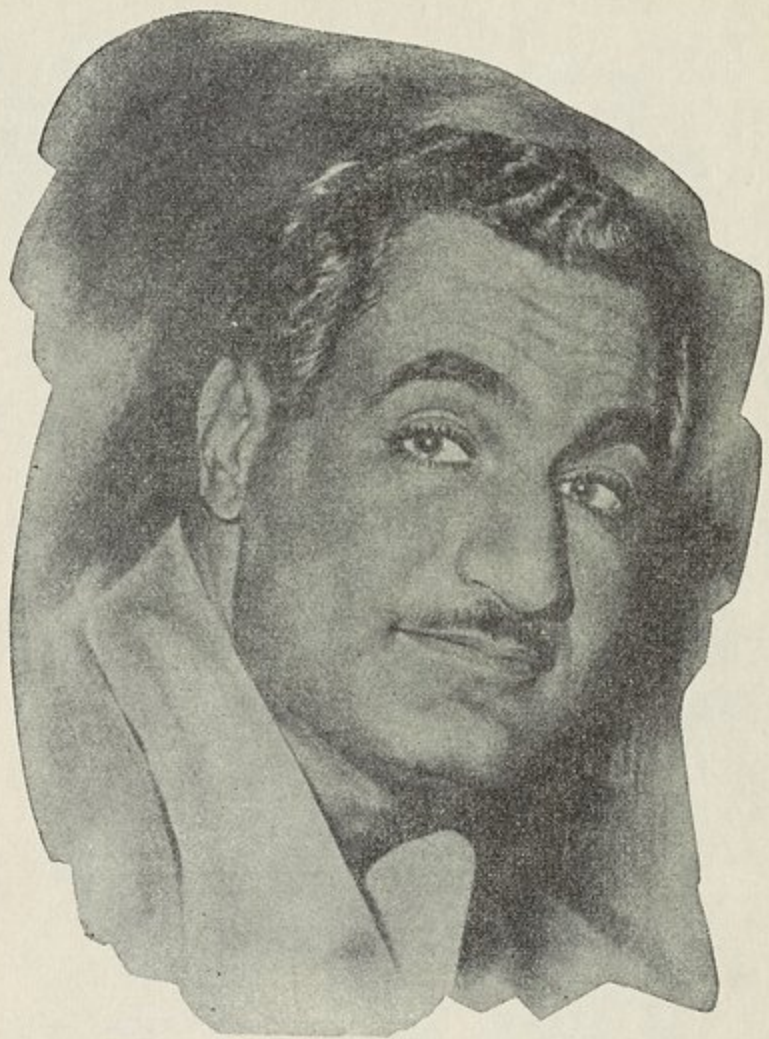
كتاب

كتاب الفوائد

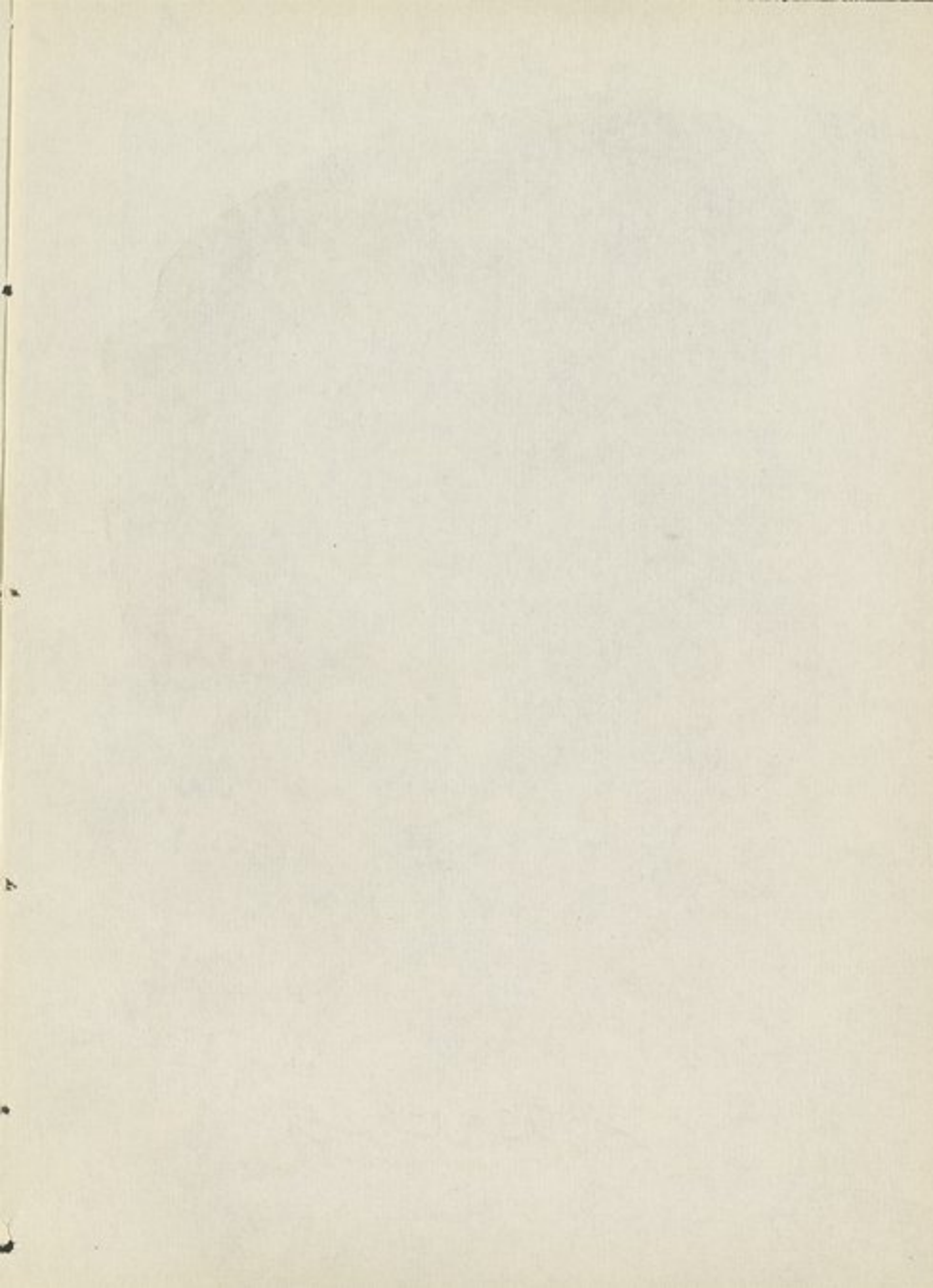
كتاب الفوائد

كتاب الفوائد

كتاب الفوائد



الرئيس جمال عبد الناصر



أثيوبيا . . . دولة شقيقة !

بقلم

جَمَال عَبْد النَّاصِر

إن بيننا وبين الحبشة من علاقات الود الدائم ما لا يكون مثله بين
الأخوين الشقيقين . . .

فنحن والحبشة بلدان متجاوران في قارة ضرب عليها الاستعمار
نطاقه ، لتكون له دون أهلها كالبقرة الحلوب : تدرُّ له من لبنها ما لاتدر
لفصيلها المهزول . . .

ونحن وهى بإزاء ذلك الاستعمار كما يُحكى عن ثيران ثلاثة :
أبيض ، وأحمر ، وأسود ، فى أجمة يتربص بها السبع ، فإذا بدا للأسودها
أو لأحمرها أن يشتري السلامة لنفسه من ظفر السبع بتسليم صاحبيه
أو الإغضاء عما يصيبهما من ظفره ونابه ، فقد أعان على نفسه بهذا
التسليم ، وما أقرب أن يصبح ذات يوم وهو يصيح بين مخالب السبع :
لقد أكلت يوم أكل الثور الأبيض !

ونحن إلى ذلك شريكان فى هذا النهر الخالد الذى يُفيض الخير
والبركة على شاطئيه من هضبة الحبشة إلى المقرن من أرض السودان إلى

2274
87511
311

المصب في البحر المتوسط ؛ فكل ذرة من ذرات ذلك الماء المتدفق في مجراه بين المنبع والمصب ، تتناجى همساً بأمانى مشتركة تلتقى عندها عواطف المصريين والسودانيين والأحباش جميعاً . . .

ونحن قبل ذلك كله أو بعد ذلك كله ، مؤمنون بالله على دين واحد ومُثل عليا مشتركة ، مسلمونا ومسلمو الحبشة يستحضرون في كل لحظة من لحات الفكر ذكرى ذلك اليوم البعيد الذى وطئ فيه المهاجرون الأولون من أصحاب محمد بن عبد الله بساط النجاشى لائذين به من كيد المشركين في مكة ، فأواهم وأمنهم وأفاض عليهم من بره ، وأثنى عليهم وعلى نبيهم خيراً ؛ والمسيحيون منا كمسيحيي الحبشة ، على مذهب واحد في الدين ، يعبدون الله عليه ، ويتداعون إلى نصرته ، وتخفق قلوبهم بمعانيه ، ويقفون في سبيله صفّاً يتلقّون بركات المطران الذى يرسمه بطريك الإسكندرية . . .

هذه الصلات العميقة الجذور في قلوب المصريين وأهل الحبشة — وليست هى كل ما بيننا وبينهم من صلات — تُشعرنا وتشعرهم جميعاً ، بما بيننا من أواصر وثيقة لا يفصم عروتها الزمان . . .

على أن الاستعمار الباغى لا يريد أن يرى شعبين في هذا الركن من العالم يعيشان على مودة ووثام . . .

أحس المستعمر الصليبيُّ بهذا في القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، فراح يلتمس أسبابه ليحمل الحبشة باسم الصليب على الانضمام إلى معسكره ؛ فباء بالخيبة والخذلان . . .

وأحسه المستعمر البرتغالى فى القرن الخامس عشر ، فراح يسعى سعيه ليقوع بين المسلمين هنا والمسيحيين هنالك ، لعله أن يجد من وراء ذلك سبيلا لتثبيت قدمه فى أرض الحبشة ليتخذها قاعدة للتوسع والاستغلال فى القارة العذراء ؛ فباء كذلك بالحبشية والخذلان . . .

وأحسه المستعمر البريطانى والفرنسى والإيطالى فى القرن التاسع عشر ، فأخذ باسم المسيحية يحاول محاولة أخرى يقطع بها أوصالا وينشئ علاقات ليفصم علاقات ؛ ولكن حيلته لم تلبث أن انكشفت لكل ذى عينين ، فردّه الأحباش على أعقابهم كذلك بالحبشية والخذلان . . .

وأحسه الأمريكى الحديث ، فأخذ ينسج أحبولة أخرى ليقوع فيها فريسة أو فرائس



هذه المحاولات الاستعمارية المتعاقبة منذ قرون بعيدة للإيقاع بالحبشة وما حوطا من بلاد أفريقية ، قد أنشأت فى قلوب الأحباش إحساساً وأنضجت فى عقولهم وعياً وعلمتهم الحرص والحذر وسوء الظن بكل ما يأتى من وراء البحار ، ولم يكونوا من القوة الحربية بحيث يأمنون غارة سافرة يشنها الاستعمار على بلادهم بعد أن عجز عن أخذهم بالختل والحيلة ، ففرضوا على أنفسهم نوعاً من العزلة تقيهم شر الاستعمار وغوائل المستعمرين ، فانقطعوا بهذه العزلة عن العالم زماناً ، لا يكاد أحد يذكرهم أو يعرف من حقائق الحياة عن بلادهم شيئاً ، واستوى فى الجهل بهم البعداء عنهم من ذوى المطامع الاستعمارية ، والأقارب من ذوى

الحوار والأخوة العاطفة ؛ فلولا الغارة التي شنها موسليني على بلادهم منذ عشرين سنة ، لظلوا غرباء عن مضطرب الحياة العامة في العالم الحديث . . . وصدق من قال : « رب ضارة نافعة » ، فإن هذه الغارة الإيطالية - وقد انتهت إلى ما انتهت إليه واستردت الحبشة حريتها - قد جعلت اسم الحبشة مذكوراً على الألسنة بعد أن طال عليها النسيان . . . على أن الحبشة - وإن كان اسمها اليوم دائراً على الألسنة - لم يزل كثير من حقائق حياتها وأسباب العلم بها بعيداً عن فكر المفكرين من أهل الشرق ومن أهل الغرب جميعاً ، وعنا نحن جيرانها الأقربين ، من غير تقصير منا بحق الحوار والأخوة . . .

لقد ظللنا حيناً - لظروف خارجة عن إرادتنا - بعيدين عن تتبع تطورات الحياة العامة في الإمبراطورية الحبشية ، جارتنا وشقيقتنا ؛ لأن السياسة التي كان يفرضها الاستعمار على بلادنا منذ بعيد ، كانت تحول بيننا وبين تأكيد أسباب التعارف وتوثيق أواصر الحوار ؛ أما اليوم وقد صارت أمورنا بأيدينا ، فقد وجب علينا أن نتوجه بأبصارنا وقلوبنا إلى ما حولنا ، وأن نلقى « أضواء على الحبشة » تكشف للقراء العرب والأفريقيين عن بعض ما يجهلون من الحقائق العامة عن ذلك القطر الشقيق ، ليكون لهم من العلم بها سبب إلى توثيق علاقات الإخاء والمودة بيننا وبين الشعب الذي تربطنا به أوثق الصلات منذ أبعد أعماق التاريخ . . .

جمال عبد الناصر

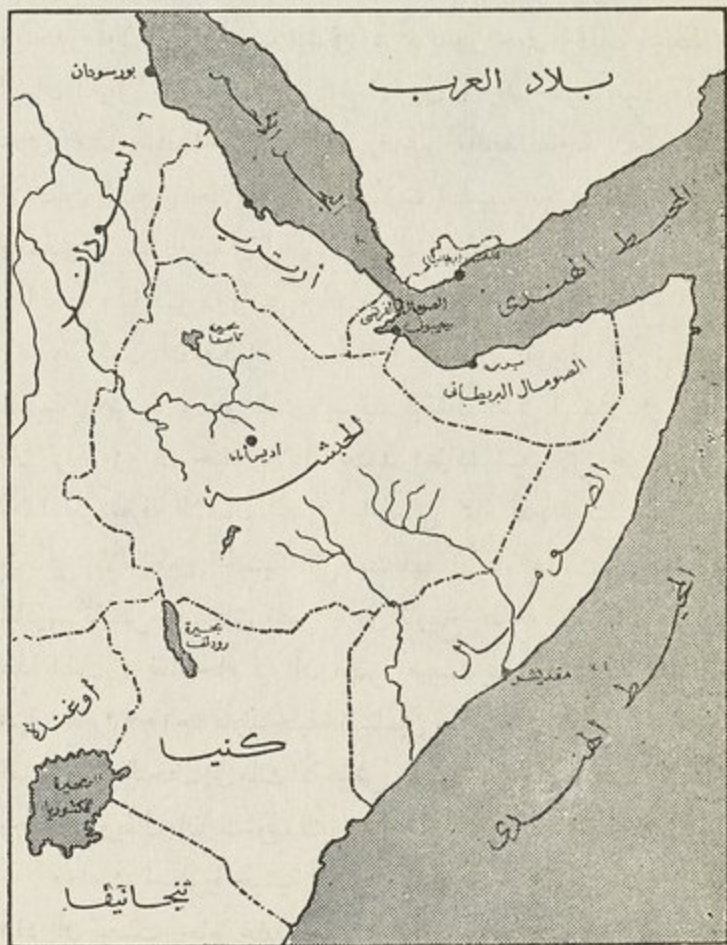
هضبة الحبشة

تقع بلاد الأحباش على هضبة صخرية مترامية الأطراف بين وادى أعلى النيل وسهول الصومال ، حدها الشرق واضح المعالم ، فهو سلسلة جبال تبدأ من نقطة تبعد نحو ١٦٠ كيلومتراً إلى الجنوب من سواكن ، وتمتد بمحاذاة ساحل البحر الأحمر على مسافة ثلاثمئة كيلومتر إلى مصوع ، ثم تنحرف نحو الجنوب حتى تصل إلى منطقة أديس أبابا ، وهذا الحائط الجبلى الذى لا يتجاوز فى الناحية الغربية مستوى علو الهضبة ذاتها ، ينحدر فى الناحية الشرقية إلى عمق يتراوح بين ألفى متر وألفين وخمسمائة متر إلى البحر وإلى سهول دنكالى ؛ أما الحدود الجنوبية من منطقة أديس أبابا فتمتد متعرجة إلى بحيرة رودلف . وتحمل هذه الهضبة الصخرية العالية فوق ظهرها كتلة جبلية وعرة ، تشمل فيما تشمل منطقة بلاد (آروسى) ، التى تخرج منها جبال هرر ، وتمتد إلى الشرق نحو خليج عدن ، وتنحدر نحو سهول الصومال التى تعتبر حدودها الشمالية ؛ وتبدو سلسلة الجبال الشرقية على صورة هلال ، ويمس طرفها الشمالى البحر الأحمر ، ويقع طرفها الجنوبى عند بحيرة رودلف ، ثم تنحدر غرباً حيث تنمحي حدودها . وعلى الرغم من قرب هذه الكتلة الصخرية من خط الاستواء فإن

مناخها معتدل نسبياً إذا قيس بالمناخ الحار الذى يسود منطقة سهول دنكالى التى تجاورها من الشرق ومن الجنوب الشرقى ؛ ولعل هذا هو السبب فى غزارة الأمطار التى تهطل على بلاد الحبشة خلال فصل الصيف ، مما يميز بينها وبين المناطق المجاورة التى قلما تسقط فيها الأمطار ، فيما عدا منطقة أعالي النيل التى لا يقل منسوب سقوط الأمطار عليها عما فى الحبشة ، أما بلاد الدناكل والصومال فقاحلة جرداء ، لا فرق بينها وبين الصحراوات ، كما هو الحال فى بلاد النوبة ، اللهم إلا حيث تلتقى روافد النيل .

وتنحدر الهضبة الحبشية بصفة عامة نحو الغرب فتسير وديانها وأنهارها فى هذا الاتجاه ، وفيما خلا ذلك لا ينحدر نحو الشرق سوى نهر (أواش) الذى ينبع على مقربة من أديس أبابا ويهبط تدريجياً فى اتجاه خليج عدن دون أن يصل إليه ، إذ يتحول إلى شبه مستنقعات يتكاثر عددها غرب جيبوتى . ولا يهبط نحو الجنوب من أنهار الحبشة إلا نهر (أومو) الذى يغذى بمياهه الطامية بحيرة رودلف ، ونهران آخران ينحدران من هضبة (آروسى) إلى الجنوب ولا يصبان فى المحيط الهندى ، بل تضيع مياههما متسربة خلال رمال الصحراء على مقربة من الساحل .

بيد أن الجانب الأكبر من مياه الأمطار الغزيرة التى تهطل على الهضبة الحبشية تنحدر إلى الجانب الشمالى الغربى نحو نهر النيل ، فتغذيه منها ثلاثة روافد كبيرة : نهر العظيرة فى الشمال ، والسوبات فى الجنوب ، وفيما بينهما نهر آباى الذى ينبع من بحيرة تسانا العميقة ،



الحبشة والصومال

وينحدر أولاً نحو الجنوب الشرقى ، ثم يدور حول الجبال ويهبط نحو الشمال الغربى حيث يسمى بالنيل الأزرق ؛ وقد حفرت مياه هذا النهر مجرى عميقاً وسط الجبال على صورة غير مألوفة لدرجة أن أصبح هذا الأخدود السحيق حائلاً دون المواصلات الطبيعية بين منطقة (جوجام) والمناطق الرئيسية العالية فى الجنوب ، حيث توجد عاصمة البلاد أديس أبابا ، كما لعب هذا النهر دوراً على جانب عظيم من الأهمية فى تاريخ الحبشة .

ولا شك أن فيضان نهر آباى بالأمطار الغزيرة التى تهطل على الهضبة الحبشية ، هو الذى يسبب فيضان النيل السنوى فى مصر ؛ فلا نزاع فى أن حياة بلادنا تعتمد اعتماداً شبه كلى على الحبشة ، وهذا أمر يعرفه الشعبان المصرى والحبشى تمام المعرفة منذ زمن بعيد ، وتحكى الأساطير الحبشية التى يتناقلها الأبناء هنالك عن الآباء أن أيادهم تقبض على عنق مصر ؛ وفى تاريخ بطارقة الإسكندرية ما يؤيد هذا القول ؛ فقد جاء فيه أن مصر أصيبت بمجاعة بسبب عدم فيضان النيل عام ١٠٩٣م ، فأوفد خليفة المسلمين بطريك الإسكندرية حاملاً أفخر الهدايا وأندر التحف إلى ملك الأحباش ، فاستقبله الملك استقبالا كريماً ولبى رجاءه ؛ ويقال إن منسوب النيل قد ارتفع فى هذه الليلة ثلاث أذرع .

وجاء فى أسطورة حبشية أن أحد الملوك المتأخرين من أسرة (زجوى) أراد أن يصب جام غضبه على (الكافرين) المصريين ، فعمد إلى تحويل روافد النيل نحو المحيط الهندى ، وكان ذلك فى منتصف القرن الثالث عشر ؛ ويقال إن ذلك الملك شرع فى تحويل مجرى ثلاثة

روافد ، ثم مات فمات المشروع . . .

وفي رواية أخرى أن الكهنة ثنوه عن عزمه ، بدعوى أن تحويل مجارى الأنهار إلى المحيط الهندى سيخلق دولة إسلامية أخرى فى الصومال لن تلبث أن تثير على شعبه حرباً شعواء وتسلبه عرش أجداده . . .

وفى سنة ١٣٢٥ م اضطهد السلطان الناصر أقباط مصر ، فما كان من ملك الحبشة إلا أن هدد بإنزال المجاعة بشعب مصر وتحويل أراضيها إلى صحراء جرداء إن لم يكف السلطان عن اضطهاد أبناء الطائفة القبطية . . . وقد تكرر هذا الوعيد مرة أخرى فى أوائل القرن السادس عشر ، حين اختمرت فى رأس الرحالة البرتغالى الكبير (البوكيرك) فكرة تحويل تجارة البندقية التى كانت تمر عبر الأراضى المصرية إلى طريق الكاب الذى كان البرتغاليون يسيطرون عليه وقتذاك ، فبدا له أن يوعز إلى ملك الحبشة بتحويل مجارى روافد النيل الحبشية ، فلا تلبث مصر أن تصبح صحراء قاحلة تنعق البوم فى جنباتها .

وقد بدا لملك الحبشة منذ عهد قريب أن يقيم على نهر آباى سداً ، عند مخرجه من بحيرة تسانا ، ولم يكن القصد من ذلك حرمان النيل من رافده الرئيسى ، بل ضبط مياه النهر حتى لا يضيع جانب كبير منها فى البحر أثناء فيضان النيل ، فتستفيد مصر والسودان مما يختزن من مياهه أثناء فترة التحريق على صورة منتظمة .

ونعود مرة أخرى لوصف طبيعة الأراضى الحبشية ، فنقول إنها تتكون من هضبة مترامية الأطراف يبلغ ارتفاعها نحو ألف متر ، تعلوها هضبة

أخرى يبلغ ارتفاعها نحو ألف وخمسمائة متر ، في وسطها منخفض بحيرة تسانا التي ينبع منها عدد من الأنهار الكبيرة والصغيرة تشق طرقها في مجار عميقة بحيث تكاد جوانبها تكون رأسية ، وتعتبر هذه المجارى حصوناً طبيعية ، يكفي للسيطرة عليها والدفاع عنها حفنة من الرجال أمام جيوش ضخمة ؛ وفي أعالي هذه الأخاديد الطبيعية تكثر المراعى والزرور والثمار ، فلا خوف على المدافعين من الجوع ؛ وقد لعبت هذه الأخاديد أدواراً رئيسية في تاريخ الحبشة ، إذ كان العصاة المتمردون على سلطان الملوك الأحباش يتخذونها أوكاراً يمتنعون فيها فلا تنالهم يد ؛ كما كان الأحباش يتخذونها معقل يصبون منها نيرانهم على الغزاة الأجانب ؛ أما في أيام السلم فتصبح هذه الأخاديد أدياراً يتعبد فيها النساك ، حتى إذا جد الجد مرة أخرى انقلت هذه الأديار وعادت حصوناً تضم بين جوانبها رجالاً أشداء يذودون عن حياض الوطن !

وكم أودع ملوك الأحباش في هذه المعقل كنوزهم وثرواتهم ، أو ساقوا إليها المناهضين لسلطانهم ؛ ومن بينها معقل قد اتخذها الملوك سجنًا يضم جميع الذكور من الأسرة الحاكمة ، فيما عدا أبناء النجاشي الحاكم ؛ ولما كانت المواصلات مقطوعة بين هذا السجن الغريب والعالم الخارجى ، فقد كان النجاشي يجد الأمان والطمأنينة في سجن الأمراء فيه ، فلا تعكر صفو حياته دسائس ولا تؤرق جفنيه ثورات ولا مؤامرات ، إذ يعيش فيه ذكور الأسرة المالكة ويموتون فلا يسمع بهم أحد ولا يصل إليهم أحد ؛ ومع هذا فلم يكن من الأمور النادرة أن يُستدعى أحد

هؤلاء السجناء من أمراء الأسرة المالكة لاعتلاء العرش إذا لم يكن هناك وارث شرعى من الطبقة الأولى !

وفى هذا البلد الذى تكثر فيه هذه الحصون الطبيعية ، وتتخلل أراضيه سلاسل من الجبال الشاهقات الوعرة وآلاف من الأخاديد السحيقة ، قلما تتحقق الوحدة بين عناصر السكان ؛ وكثيراً ما تعذر على الملوك أن يسيطروا سلطانهم على الولايات المتباعدة التى تفصل فيما بينها هذه الحوائل الطبيعية ، وكم من زعيم رفع راية العصيان وشق عصا الطاعة على مليكه ، واعتصم بمغاور الجبال ، وأعوانه يتحكمون فى رؤوس الأخاديد ، فيصعب على السلطات الحاكمة أن تنالهم وتخضعهم لمشيئة « ملك الملوك » ، وبهذا ظلت العشائر المتمردة على السلطة المركزية محتفظة باستقلالها فترات طويلة ، وانفصمت عرى الوحدة الحبشية فى وقت من الأوقات فقامت فى الحبشة أمارات عدة مستقلة استقلالاً ذاتياً ، إلى أن وقعت الطامة الكبرى ، وداست أقدام المحتل الأجنبى أرض الوطن ، فتنبه الوعى القومى ، وزامت الأحقاد ، فالتف الأمراء حول مليكهم ! ولقد عاش الأحباش طويلاً منقطعين فى داخل بلادهم عن العالم الخارجى ، ولا عجب فسييل اتصالهم بمدينة البحر الأبيض المتوسط قاصر على الموانئ الحبشية فى البحر الأحمر ، وتمتد رقعة الحبشة فيما وراء ذلك إلى حدود مصر وصحراء النوبة . . .

ومن تلك الموانئ يصدر الأحباش منتجات الأرض الطبيعية ، ومنها الذهب والعاج والفلفل والبهار وبخور الصومال ، والعبيد الذين

يقتنصهم الجلابون من أعلى النيل ، وأخيراً البن الحبشى الشهير الذى تنتجه ولاية (كافا) الواقعة على الهضبة الجنوبية .

أما الواردات فقاصرة على منتجات حوض البحر المتوسط ، فلا ينفذ إلى الحبشة إلا قليل من بصيص نور المدنية الحديثة .

ولقد جاء الفاتحون العرب عن طريق هذه الموانئ ، وجاءوا معهم باللغة والكتابة التى لم تزل تستعمل حتى اليوم فى مختلف أنحاء إثيوبيا ، كما تسربت من قبل عن هذا الطريق ، الثقافة اليونانية التى جاءت معها بالمسيحية فأصبحت من يومئذ دين الدولة الرسمى ؛ ومن ذلك الطريق نفسه جاء الفوج الأول من الزوار الغربيين ، من البرتغال ، فحملوا إلى البلاد أصول الحضارة الغربية الحديثة .

يبد أن طريق المواصلات هذا لم يكن مأموناً فى كل الأحيان ، فكثيراً ما كان ينقطع خلال فترات طويلة ، لا سيما منذ ظهور الإسلام ، فظل الأحباش فى عزلة عن العالم الخارجى ، يحيط بهم أجناس من الناس لا يدينون بدينهم ولا يشاركونهم فى عاطفة ؛ فحملهم هذا على الحذر من كل ما هو أجنبى ؛ ثم تأصل الشك والحذر فى النفوس بعد اتصالهم بأبناء دينهم البرتغاليين الذين جاءوهم طامعين ؛ فظلوا بعد ذلك قروناً يرهبون الأجنبى ويقفلون أبوابهم دونه ، حتى صارت هذه القطيعة جزءاً من موارثهم العقلية والدينية ؛ فلا يكادون يأمنون جانب الغريب ، خشية أن يكون له وراء الأكمة كمين يتربص بهم ؛ فلا عجب أن يظل الأحباش بعيدين عن كل تطور فى الفكر أو فى وسائل المعيشة .

أهل الحبشة

ينتسب الأحباش إلى سبط حام ، وهم فريقان : الذين يعيشون في المناطق الشمالية الغربية ، ويمتون بصلة القربى إلى قبائل الدناكل والصوماليين التى تضرب في صحراء النوبة ، وسكان الجنوب ؛ وهؤلاء قد اختلطوا وامتزجت دماؤهم بدماء الزنوج الذين نزحوا إلى داخل البلاد من أعالي النيل ، ومن أجل ذلك يختلفون ، أصلاً ولساناً ، عن سكان المناطق الشمالية والوسطى . وقد حدث في غابر الزمان — منذ نحو ألف سنة قبل ميلاد المسيح على وجه الترجيح — أن عبرت بعض القبائل العربية اليمنية البحر الأحمر واستقرت على شاطئ الصومال ، ثم تغلغت إحدى هذه القبائل ، وتدعى بالحبشات ، إلى المنطقة الشمالية من الهضبة ، فأطلق عليها اسم « حابش » ، ومنه اشتقت تسمية الحبشة تحريفاً ؛ ثم قبيلة أخرى تدعى « بنى عجازى » ، ومنها اشتقت تسمية اللغة التى يفخر الأحباش بأدائها القديمة والتى ما زالت تنظم بها التراتيل الدينية فى الكنائس حتى يومنا هذا .

وقد امتزج أفراد هذه القبائل بالسكان الحاميين وفرضوا عليهم عاداتهم وتقاليدهم ولغتهم وأصهروا إليهم ؛ ومن نسلهم كانت نواة الشعب الحبشى ذى الثقافة السامية والأصل الحامى ، ثم تجمعت هذه العشائر وارتبطت فيما بينها بصلات الأرحام ، إلى أن قامت مملكة أكسوم فى الطرف الشمالى الغربى من البلاد ، وكان ذلك فى القرن الأول بعد الميلاد . وظلت هذه المملكة تمتد سلطانها على الجنوب قرابة ستة قرون ، إلى

أن بزغ فجر الإسلام في شبه جزيرة العرب ، غير أنه لم يصل إلى تلك الأصقاع النائية ، فاعتنق سكان الشمال الديانة المسيحية ، في حين امتدت فتوح الإسلام إلى المناطق الجنوبية فأسلم سكانها ، وما كاد ينقضى القرن الثاني عشر حتى كانت تعاليم الإسلام قد امتدت وانتشرت في ولايات أمهرا وجودجام وشوا ، ولم يبق على دين الوثنية إلا سكان الجبال الذين لم تغمرهم المدنية . أما الأمهرية ، لغة الدولة الرسمية في الوقت الحاضر ، فهي لهجة بعيدة كل البعد عن لغة (العجيز) الأصلية .

وفي القرن الرابع عشر غزا سكان الصومال المسلمون الهضبة الحبشية الوسطى ، ولكن الأهالي ظلوا على لغتهم ودياناتهم ، إلى أن نال الغزو قبائل (الغالا) الوثنية خلال القرن السادس عشر ، فاعتنقت إحداها الإسلام — وهي قبيلة (الأولو) — وظلت القبائل الأخرى على دين أسلافها . وعلى اختلاف القرون ظلت عاصمة الحبشة تنتقل شيئاً فشيئاً نحو الجنوب ، فاستقرت بعد أكسوم في مدينة جوندار شمالى بحيرة تسانا ، إلى أن استقرت في مدينة أديس اباباخلال القرن الماضي ؛ لتضاول نفوذ الملوك وسلطانهم في الشمال . . .

وغزا المسلمون ميناء مصوع ، كما استولى رجال قبائل بيدجا النوبية على المناطق الساحلية ، وهذا سبب احتفاظ سكان النصف الشمالى من إريتريا الإيطالية (سابقاً) بتقاليدهم الحبشية وديانتهم المسيحية . أما الإسلام فقد انتشر في الجنوب والشرق حيث استقرت قبائل الغالا السالفة الذكر .

أصل الحبشة

كما جاء في الأساطير

ينتمى ملوك إثيوبيا - الذين يأنفون من إطلاق اسم الحبشة على بلادهم - إلى إحدى سلالات الملك سليمان ، الذى تروى الأساطير أنه - حين شرع فى إقامة المعبد فى أرض القدس - أوفد إلى أركان الدنيا الأربعة رسلا يأتونه بما يلزم لبناء عرشه ، ويدفع ثمنه ذهباً وفضه .

وقد سمع بذلك تاجر يدعى (تاماران) من موردى قصر الأميرة ماكيدا (بلقيس) الحبشية . ، فشد رحاله وعبر البحر الأحمر حاملاً إلى الملك سليمان أحجار (السافير) الزرقاء وخشب الآبنوس الصلب ، وملاحل بأرض سليمان الحكيم ، راعته أهبه الملك وبهرته حكمة الملك ، فرفع إلى الأميرة تقريراً ضافياً عما رأت عيناه وسمعت أذناه ؛ فاستقر رأى الأميرة على أن تزور ملك سليمان ، وأمرت بتجهيز قافلة عظيمة من

(*) تختلف الأسطورة هنا عما ورد فى القرآن الكريم من قصة باقميس وسليمان ؛ فبلقيس عندنا هى ملكة « سبأ » من بلاد اليمن ، لا أميرة من الحبشة ، وقصة اجتماعها بسليمان مفصلة بوضوح فى سورة « النمل » على غير الوجه الذى تروى به هنا ؛ وإنما أثبتناها على هذا الوجه المخالف نقلاً عن الرواية الحبشية ، لأنها بسبيل مما نروى من التاريخ الأسطورى لأهل الحبشة فيما يعتقدون لا فيما نؤمن به .

الجمال والبغال والحمير ، وسعت إلى القدس حاملة إلى الملك أفخر الهدايا وأثنى الرياش ؛ فلما وصلت إليها استقبلت بحفاوة بالغة وأسبغ عليها سليمان كريم عطفه ، فكانت تجلس إليه لتستمع إلى أحاديثه عن الخالق وعبادته ، وما زال بها حتى كفت عن عبادة الشمس والقمر والكواكب ، واعتنقت اليهودية .

وقضت الأميرة في ضيافة سليمان ستة أشهر كاملة ، ثم قررت العودة إلى عاصمة مملكتها ؛ فلما سمع سليمان بنيتها على الرحيل ، ناجى ربه قائلاً « اللهم اغفر لعبدك . . . هذه امرأة ذات جمال وفتنة ، وقد سعت إلى من أقصى بقاع الأرض ، فهلا رزقتني منها يا رب غلاماً يستوى على العرش من بعدى . ! »

وتقول الأسطورة إن سليمان لم تراوده نفسه إلى بلقيس إلا من أجل هذه الغاية ، ليكون له منها ولد يجلس على عرش الحبشة ، وينشر تعاليم الدين اليهودى فيها ، ويقضى على الوثنية . . .

ثم تمضى الأسطورة فتروى أن سليمان أقام للضيف الكريمة وليمة فاخرة ، وأمر بأن تقدم لها الأطعمة الحريفة المتبلة ، لكي تحس بالظماً الشديد ؛ فلما انتهت المأدبة دعاها سليمان إلى قصره ، فترددت في أول الأمر ، ثم نزلت على مشيئته بعد أن عاهدتها ألا يحاول معها أمراً تاباه ، وعاهدته ألا تمس شيئاً في قصره إلا بإذن منه . . .

ثم أمر سليمان بإعداد فراشين له ولضيفه في بهو واسع من أبهاء القصر ؛ فلما انتهت السهرة ، أطفئت الأنوار واستلقى كل منهما على

فراشه ، وتظاهر سليمان بالنوم العميق ؛ وكان حلق الأميرة جافاً من شدة
الظلم ، فقامت من فراشها ومدت يدها إلى وعاء الماء لتروى غلتها ، فإذا
سليمان يهب من فراشه صائحاً بها : قد نقضت العهد ومسست شيئاً في
القصر بغير إذن مني !

فغضبت الملكة واحتجت بأن العهد الذي عاهدته لا يشمل الماء ،
فأجاب سليمان : إن الماء أغلى شيء على الأرض ، ومنه خلق الله كل
شيء حي !

فاستغفرته الأميرة متوسلة إليه أن يأذن لها في أن تشرب ؛ فقال
سليمان : إذن فأني في حل من عهدي كذلك !

وهكذا خضعت بلقيس لإرادة سليمان فنال منها مناله . . .

ثم رأى سليمان في منامه كأن الشمس تهبط على أرض يهوذا ، وكأن
قوماً من رعيته يحاولون الانقضاض عليها وتحطيمها ، فترفع الشمس إلى
السماء ، ثم تهبط بعيداً بعيداً ، على أرض روما والحبشة . . .

وفي صباح اليوم التالي قدم سليمان إلى بلقيس خاتماً وطلب إليها ،
إذا ما أنجبت غلاماً ، أن تعطيته إياه وتبعث إليه به ، لأنه أبوه !

ويروى بعد ذلك أن بلقيس عادت إلى الحبشة ، ثم ولدت غلاماً
سمته منليك ، فلما بلغ مبلغ الرجال أعطته أمه خاتم سليمان ، وزودته
بفاخر الهدايا ، وجهزت له قافلة كبيرة تصحبه ، ويتولى قيادتها التاجر
تاماران إلى القدس ، وطلبت إلى تاماران أن يرجو سليمان بتويع ابنه ملكاً
على الحبشة ، ويصدر قانوناً بأن يظل عرش الحبشة وقفاً على سلالة

منليك من الذكور دون الإناث ، كما كان العهد من قبل . . .
 فلما وصل الركب إلى غزة استقبل اليهود ابن مليكهم بالحفاوة
 والتهنئات العالية ، وسار في ركابه عدد كبير منهم إلى القدس ، حيث
 استقبله سليمان الحكيم وأسبغ عليه عطفه وأكرم وفادته ؛ فلما قدم له
 منليك الخاتم دليلاً على بنوته ، قال سليمان إنه ليس في حاجة إلى بينة
 لإثبات نسبه إليه ، لأن قسما وجهه وتكوين جسده تم عن حقيقة
 أصله . . .

ورفع تاماران رسالة الأميرة إلى سليمان فتلاها ، ولكنه أخذ يحاول
 إقناع ولده البكر بأن يكون ولياً لعهدده ، وحاكماً على شعب إسرائيل من
 بعده ؛ ولكن منليك أبى محتجاً بأوامر أمه ، فلم يسع سليمان إلا الاعتراف
 به ملكاً على الأحباش ، وأطلق عليه اسم داود ، كما أصدر قانوناً بأن
 يكون عرش إثيوبيا وفقاً على الذكور من أسرته دون الإناث . . .

ثم أسرّ كبير الكهنة إلى داود أن بركة الإله ستعم بلاده إذا آمن
 بدين يهوذا ، وأن اللعنة لابد أن تحل عليه إذا عصى تعاليم هذا الدين . . .
 وجمع سليمان وزراءه ومستشاريه فخطب فيهم قائلاً إنه نصب ولده
 البكر داود ملكاً على الحبشة ، وعلى كل واحد منهم أن يوفد أول ولد
 يولد له إلى تلك البلاد ، ليكونوا عماداً للملكه ، ومستشارين مخلصين له ،
 يتولون تصريف شؤون المملكة إلى جانبه . . .

ولما حان وقت رحيل منليك إلى بلاده ، أبدى أولاد النبلاء من
 شعب سليمان أسفهم على رحيلهم من أرض آبائهم ، وأخذوا يلعنون ذلك

اليوم الذى أصدر فيه سليمان هذا القرار المجحف .
ولكن آزارياس ابن رئيس الكهنة دبر فى نفسه أمراً ما لبث أن
أفضى به إلى بقية أولاد النبلاء فأقروه عليه ، وخلاصته أن يلجأوا إلى
نجار ماهر ، لينبئ لهم هيكل من الخشب شبيهاً بهيكل سليمان ، ويستبدلوه
به ، ثم يحملوه معهم إلى الحبشة !

وفى ليلة دامسة الظلام ، قاموا بتنفيذ مشروعاتهم وحملوا الهيكل معهم
وقد أسدلوا عليه غطاء يخفيه ، ثم جدوا فى المسير ، فقطعوا صحراء سينا
فى أيام معدودات ، حتى بلغوا الأراضى المصرية ، ثم انحدروا منها
جنوباً إلى الحبشة . . .

و هذه الأثناء ، أفضى أولاد النبلاء بالسر إلى منليك (داود)
ففرح فرحاً عظيماً وأقبل عليهم يهنئهم على ما دبروا . . .
أما سليمان الحكيم فقد أحس بعد رحيل ولده بانقباض شديد ،
عزاه إلى فراق ولده ؛ ولكن كبير الكهنة لم يلبث أن اكتشف السر ،
فراح يلطم خديه ويمزق صدره ؛ ولما عرف سليمان بالحقيقة ، أمر بإعداد
جيش للحاق باللصوص الذين استولوا على عرشه خلصة ودنسوا الهيكل
بفعلتهم الشنعاء !

وبلغ الجيش أرض مصر ، فعلم أن داود وحاشيته قد رحلوا منذ
نحو شهر ، ولم يبق لهم أمل فى استرداد العرش ؛ فعاد سليمان إلى بلاده
مهموماً كاسف البال ، وشاور كبير الكهنة ، فاستقر رأيهما على كتمان
السر ، حتى لا يعلم اليهود أن عرش سليمان قد انتقل عن أرض يهوذا . . .

وبعد عدة سنين أوفد بليتازار ملك روما رسولا من لدنه إلى سليمان ، يطلب إليه أن يزوج أحد أبنائه لابنته ، ليعتلى عرش روما من بعده ؛ وكان سليمان قد ولد له بعد داود ولدان : هما : أدراميس ، وروبوم ؛ فأرسل سليمان (أدراميس) إلى روما ، وجعل روبوم ولياً لعهدده ؛ وبذلك حكم (روبوم) أرض يهوذا ، وداود الأصقاع الجنوبية ، وأدرايميس جنوب أوربا وشرقها ؛ وتحققت النبوة القائلة بأن أولاد سليمان سيحكمون بلاد العالم المتحضر جميعاً ، ثم لا يلبث اليهود طويلاً بعد ذلك فيتفرقون في أنحاء الأرض . . .

وقد حاد ملوك روما من سلالة سليمان عن دينهم بعد المسيح ، كما تم تدمير الهيكل في أرض يهوذا ، فلم يبق من سلالة سليمان من يتبع دينه وتعاليمه إلا سبط منليك (داود) . . .

وغنى عن البيان أن هذه الأسطورة لا تستند إلى دعامة من التاريخ ؛ وحسبنا دليلاً على ذلك أن ملوك أكسوم ظلوا على الوثنية حتى أوائل القرن الرابع قبل الميلاد ، وتدل آثارهم على أنهم كانوا يتفاخرون بنسبتهم إلى إله الحرب « ماحرم » .

ويبدو أن البواعث التي حفزت إلى نشر هذه الأسطورة ترجع إلى رغبة الأحباش في إرجاع نسبهم إلى أصول عريقة ؛ وفي التاريخ القديم والحديث نظائر لمثل هذا الزعم ؛ فحين اتصل الرومان القدماء بالحضارة اليونانية ، لم يرضهم أن يكونوا مغمورى النسب ، فراحوا ينقبون في بطون



كيف انتقل هيكل داود إلى الحبشة ؟

التاريخ حتى عثروا على أسطورة تزعم أن أحد سكان طروادة المدعو (إينيه) فر بعد سقوطها وعبر البحر إلى إيطاليا ؛ فزعم بناء روما وسادتها أنهم حفدته !

وعلى هذا المنوال نسج الأحباش ، فإنهم بعد أن اتصلوا بمدينة الشرق المسيحية ، رأوا أن يختلقوا لأنفسهم أصلاً تاريخياً ، فبنوا على قصة من قصص التوراة هذه الأسطورة الملفقة ليحققوا لأنفسهم ما أرادوا من التفاخر بماض مزعوم ؛ وقد يكون للأحباش بعض العذر من هذا إذا ما علمنا أن نفرّاً من الإنجليز يروجون أسطورة أخرى مؤداها أن السكسون جنس من ولد إسحاق بن إبراهيم عليه السلام ، وأن الإمبراطورية البريطانية هي أرض الميعاد . . .

ولعل أول ما نبه الأحباش إلى اختراع هذه الأسطورة ، هو ما جاء في الكتب المقدسة من أن ملكة سبأ قصدت إلى مملكة سليمان من بلاد سحيقه لتنهل من حكمته — وقد أشارت آيات من القرآن الكريم إلى شيء من هذا المعنى — فلم يلبث الأحباش أن لقفوا هذه القصة ونسجوا حولها الأساطير . . .

وقد قيل إن تاريخ مُلك بلقيس يرجع إلى القرن الأول بعد الميلاد ، حينما تولى يوسف عليه السلام خزانة فرعون في أرض مصر ؛ فلماذا لا يزعم الأحباش أن بلقيس هي ملكة أثيوبيا التي أنجب منها سليمان ابنه داود ؟ وإذا كان داود هو ابن سليمان البكر ، فلا بد أن يكون الأحباش أعرق أصلاً وأكرم محتداً من النبلاء اليهود ومن سلالات أولاد سليمان

جميعاً

أما لماذا اعتنقوا المسيحية ولم يبقوا على دين سليمان ، فإنهم يقولون إن شقيق ملكهم الأول في أثيوبيا ، كان ملكاً على روما ، فليسوا هم وحدهم الحفظة على تراث سليمان ، وما دام ملك روما قد اعتنق المسيحية ، فمن حقهم أن يعتنقوها مثله !

وقد يكون من البواعث على ترويع هذه الأسطورة ، رغبة الأسرة الحاكمة في إقناع الشعب الإثيوبي بحقها الإلهي ، ما دام أصلها يرجع إلى نبي الله سليمان ، وما دام سليمان هو الذي توج منليك ملكاً على الحبشة ، فإن كل ثورة على أحد الحاكمين من سلالته حرام ، بل كفر بنعمة الله ؛ ثم إنهم بهذه الأسطورة — فوق ذلك كله — خثولة المسيح عليه السلام ، وحسبهم ذلك شرفاً في الدين والدنيا جميعاً !

هذا ويزعم المؤرخ العربي « أبو صالح » الذي وضع في سنة ١٢٢٥ بعد الميلاد كتاباً عن تاريخ الكنائس والأديار في مصر ، أن لدى الأحباش حقاً عرش سليمان الذي يحتوي على لوحين من الحجر منقوش عليهما بعض ما فرض الله من شرائع الدين اليهودي . . .

ويضيف المؤرخ إلى ذلك أن ملوك الحبشة لعهد ليسوا من سلالة داود ، وإنما يرجع أصلهم إلى موسى بن عمران عليه السلام ؛ وهو دليل على أن الأسرة الحاكمة في ذلك العهد (أسرة زجوى ، التي طرد آخر ملوكها سنة ١٢٧٠ م) — قد سلبت الملك من أصحابه الشرعيين ، فلا عجب أن تتحل لنفسها أصلاً يرجع إلى سيدنا موسى ، لتكون بهذا

النسب المنحول أسبق وأعرق من أسلافها الذين ينتمون إلى سليمان الحكيم .. وهذا الزعم لا يؤيده دليل ثابت من التاريخ ، ولعله قائم على ما جاء في التوراة من أن موسى اتخذ لنفسه حليمة حبشية ؛ وهو سلاح استخدمته الأسرة الحاكمة في ذلك الوقت لتشهريه في وجه أنصار الأسرة المخلوعة ! ومجمل القول أن هذه الأسطورة نشأت في القرن السادس الميلادي ، عقب ظهور الإسلام ؛ وكانت مملكة الأحباش يومذاك في عزلة تامة عن العالم الخارجي المسيحي ؛ ثم ازدادت هذه الأسطورة تأصلا في النفوس ورسوخاً في العقول على مر الأيام ، إلى أن تزعزع مركز الأسرة الحاكمة التي غصبت العرش في منتصف القرن الحادي عشر واستولت على الحكم قرناً وثلاث قرن . . .

ولعل هذه الأسطورة أدرجت في كتب التاريخ التي وضعها بطارقة الإسكندرية ، زعماء الحبشة الروحانيون ، الذين كانوا يناوئون تلك الأسرة الغاصبة ويؤيدون الأسرة المغلوبة على أمرها .

وفي مستهل القرن السادس عشر ، كان المرجع التاريخي الجدي ، وهو من وضع أحد الأوربيين ، يقرر للعالم أن عرش سليمان يزين كتدرائية أكسوم ، وأن الأسرة الملكية من سلالة سليمان الحكيم ، وطبقة النبلاء من أحفاد رجال البلاط السليمانى ، ورجال الدين من سلالة كبير الكهنة في القدس ؛ وقد آمن الناس بهذه الخرافة رداً عن الزمن ، وآية ذلك أن النسخة الملكية من كتاب (كبيرنا ناجاست) الذى يحتوى على الدوحة الملكية الحبشية ، سليلة سليمان ، كانت قد اختفت في

ظروف مريبة من كندرائية أكسوم ، واتضح بعد ذلك أن لورد نابيير الإنجليزى قد سرقها وحملها إلى بلاده ، فلما اعتلى العرش حنا الرابع ، خليفة تيودور ، كتب إلى لورد جرانفيل يستحلفه أن يرد إليه النسخة ، لأن رعاياه لا يدينون له بالولاء إلا إذا عادت لحيازته ؛ فرق له قلب جرانفيل ، وتوسط لدى أمناء المتحف البريطانى فردوا إلى النجاشى كتابه المقدس !

ولا جدال فى أن هذه الأسطورة المتأصلة فى نفوس الأحباش ، التى تزعم أنهم شعب الله المختار ، وأصحاب عرش سليمان ، وحملة الوصايا الإلهية التى نزلت على سليمان الحكيم - كانت أكبر معين لهؤلاء الأحباش فى حروبهم ضد المسلمين تارة وضد الوثنيين تارة أخرى .

وقد ظلت الأسرة التى تزعم الانتماء إلى سليمان ، تحكم البلاد من سنة ١٢٧٠ إلى سنة ١٨٥٥ ، وإن كان ملوكها خلال القرن الأخير ملوكاً بلا سلطة ، على أنه من بواعث فخر الأسرة المالكة فى كل بلد ، أن تتوارث العرش ستة قرون متصلة .

أجل ، لقد قامت حروب واشتعلت ثورات فى الحبشة ، غير أن الشعب ظل على ولاء دائم للملوكة الذين يحكمونه طوعاً لإرادة الله !

حقيقة الأصل في التاريخ

كان أول الزوار الأوربيين الذين نزلوا في الأراضي الحبشية ، بعض أمراء البحر اليونانيين الذين أوفدهم بطليموس الثاني وبطليموس الثالث إلى هذا الأصقاع لاكتشاف مجاهل الساحل الغربي للبحر الأحمر خلال القرن الثالث قبل الميلاد ؛ وكان من أهداف هذه البعث إنشاء علاقات تجارية مع سكان البلاد ، واقتناص الفيلة الأفريقية التي كان البطالسة يقومون بترويضها وتدريبها لمواجهة الفيلة الهندية في ساحات الحرب ؛ ولهذا الغرض أقام وكلاء البطالسة على طول الساحل عدداً من المحطات التجارية والاستراحات التي كانت تستخدم مراكز تبدأ منها الحملات التي تتغلغل إلى باطن الغابات وسفوح الجبال ، حيث تكثر الفيلة المطلوبة للملك مصر ، وكان من بين هذه المحطات واحدة أطلق عليها اسم بيرينيس التي كانت تحتل موقع مدينة أدوليس الساحلية ، حيث يقع ميناء أكسوم الحالي في أغلب الظن .

على أن المحطات المذكورة لم تلبث أن هجرها الذين أنشأوها بعد أن تقلص سلطان البطالسة ، ولكن العلاقات التجارية مع ذلك لم تنقطع بين المصريين والأحباش .

وقد ورد ذكر مملكة الأحباش لأول مرة في كتاب « جولة في بحر

لإريتريا » الذى يتضمن مشاهدات لمؤلفه فى رحلات قام بها إلى البحر الأحمر والمحيط الهندى خلال السنوات الأخيرة من القرن الأول الميلادى ، وجاء فى هذا الكتاب عند ذكر ميناء أدوليس : أن عاصمة ملوك أكسوم تقع على مسيرة ثمانية أيام فى داخل البلاد ، حيث يجلب العاج الذى يشحن على ظهور الدواب إلى الميناء المذكور ، ومنه يصدر بحراً إلى الإمبراطورية الرومانية . . .

ثم يضيف المؤلف : إن سيد هذه الأصقاع يدعى « زوسكالس » وقد اتصف بالشح والجشع ، ولكنه نبيل ، نهل من ثقافة اليونان قسطاً وفيراً . . .

وعلى ذلك يعتبر زوسكالس هذا فى نظر التاريخ أول ملك للحبشة ، ومنذ عهده ظلت الحضارة تسير اتساع حركة التجارة بين بلاده والأقطار الخارجية . .

ومن بين المراجع القديمة التى يعتد بقيمتها التاريخية إلى حد ما ، سفر كبير وضعه أحد تجار الإسكندرية عن رحلاته فى البحر الأحمر ، وذكر فيه أنه نزل ذات مرة فى ميناء أدوليس ، فأوفد إليه ملك أكسوم حاكم الولاية ليرجوه أن ينقل إلى اليونانية لوحتين ، ذكر الكاتب أنه احتفظ بإحدهما ، وورد فيهما وصف غزوات ذلك الملك ، وإخضاعه لقبائل « بيدجا » الرحل التى كانت تضرب وقتذاك فى الصحراء الواقعة خلف ميناء سواكن ولأهل تنجانيقا التى تقع على الحدود المصرية الجنوبية ؛ كما سجل الملك أنه عبر البحر وغزا الأراضى العربية (أراضى

اليمن على وجه الترجيح) وفرض على ملوكها وزعماء عشائرها الجزية وتأمين الطرق التجارية ، البرية والبحرية على السواء . وجاء في الختام أنه أول ملك حبشى كتب له التوفيق في غزواته بتأييد من الإله (ما حرم) الذى أنجبه وأنجب آبائه من قبله ؛ فلما ساد السلام وخضعت له هذه الشعوب ، عاد إلى أدوليس وقدم القرابين لإلهه المعظم ، ليلحظ بعين رعايته أولئك الذين يجوبون باسمه البحار ويخضعون الشعوب لسلطانه !

فإذا جاز لنا أن ندخل فى حسابنا عنصر التفاخر والمباهاة ، فلا سبيل لنا إلا الاعتراف بأن هذا الغازى المظفر كان من غير شك هو مؤسس الإمبراطورية الحبشية ، وأنه حكم خلال القرن الثالث الميلادى ، وكان اسمه « أفيلاس » ، وما زالت بعض العملة المضروبة باسمه متداولة حتى الآن بين أيدي الهواة ، أو محفوظة بين جدران المتاحف .

أما خلفه الذى استوى على عرش مملكة أكسوم ، ولدينا عنه بعض المعلومات ، فكان يدعى (آيزاناس) بن (إيلاميدا) ، وقد حكم خلال الربع الثانى من القرن الرابع ، وخلد أعماله وفتوحه فى عدة لوحات ، بعضها باليونانية ، وبعضها بلغة اليمن ، وهى تدل على أن الحبشة كان لها ثقافة خاصة إلى جانب ثقافة الإغريق المستوردة .

وكان الملك يصدر مراسيمه باسم « ملك أكسوم ، حمير ، ريدان سبأ ، صالحين ، سيامو ، بيدجا ، كاسو ، ملك الملوك بن ماحرم المظفر الذى لم يعرف الهزيمة قط »

فورود ذكر سبأ وحمير يدل على أن إمبراطورية الحبشة شملت

منذ فتوح « أفيلاس » أراضى اليمن ، بيد أنه ليس من المؤكد أن (آيزاناس) قد حكم الجزء الجنوبي الغربى من شبه جزيرة العرب ، إذ اقتصر فتوحه على الأراضى الأفريقية ؛ فقد جاء فى اللوحات المذكورة آنفاً أن شقيقى الملك ، الأمير سazanاس والأمير حاديفان ، هما اللذان قاما بإخماد ثورة قبائل بيدجا على سلطان الإمبراطور ، وفيما عدا ذلك كانت الحروب قاصرة فى عهده على إخضاع شعوب تكاد تكون غير معروفة لدينا ، فيما عدا أهالى النوبة الذين شنوا الغارات على جيرانهم ثم عبروا ضفة النيل فاعتدوا على أراضى الإمبراطور ؛ ولما أوفد إليهم رسله ليوقفهم عند حدهم ويكبح حماح عدوانهم بالحسنى ، أهانوهم وسلبوهم أموالهم ، فلما سمع الإمبراطور بذلك جرد عليهم حملة كبيرة ، فراحت تنكل بهم وتطاردهم حتى إذا بلغوا نهر سيدا (النيل الأزرق) ازداد ضغط الأحباش عليهم ، فمات كثير منهم غرقاً ، وظل قائد الحملة يلاحقهم إلى أن دخل أراضيتهم فأحرق مدنهم وديارهم ، ونهب محاصيلهم من الحبوب والقطن ؛ وقد ثبت علمياً أن القطن يزرع فى السودان منذ آلاف السنين .

ثم واصل الجيش المسير على ضفة النيل الأزرق حتى بلغ أراضى النوبيين الحمر ، فأخضعهم لسلطان الإمبراطور .

وقصارى القول أن هذه اللوحات تعتبر أول وثائق ذات قيمة تاريخية

ثابتة لتاريخ الحبشة فى هذا العصر . . .

المسيحية في الحبشة

ذكر روفان في كتابه (التبشير في الحبشة) أن فيلسوفاً رومانياً كان في طريق عودته من الهند مع غلامين صغيرين من أقاربه ، فلما وصلت به السفينة قرب الساحل الحبشى رست لتتزوّد بالماء العذب ؛ وكانت المعاهدة قد فسخت بين الإمبراطورية الرومانية وإمبراطور الحبشة ، ومن عادة الأحباش في مثل هذه الحالة ، أن يعتبروا الرعايا الرومان أعداء للمليكنهم ، فيستحلوا دمهم ، فما كادت السفينة تلقى مراسيها في الميناء حتى انقضّ الأحباش على ركابها الرومان يعملون السيوف والمدى في رقابهم . . .

وكان الطفلان في أثناء هذه الخجرة قابعين في أحد أركان السفينة يرتعدان قرعاً من هول ما ترى أعينهما ؛ فلما سيقا إلى قصر الإمبراطور أخذته الشفقة بهما ، فاتخذ من أحدهما ساقياً ، واستشف في الآخر أمارات الذكاء فعهد به إلى مرب خاص ، ثم اتخذه فيما بعد أميناً لخزائنه ، وأسبغ عليه وعلى زميله عطفه وحنانه ؛ ولما مات الملك ، ترك وراءه أرملة حزينة وطفلاً رضيعاً ، فطلبت الإمبراطورة الأم إلى الغربيين أن يشاركها في تصريف شئون المملكة حتى يبلغ ابنها سن الرشد ، فترلا على إرادتها الملكية ، وتولى أكبرهما (فرومانس) زمام الحكم ، في

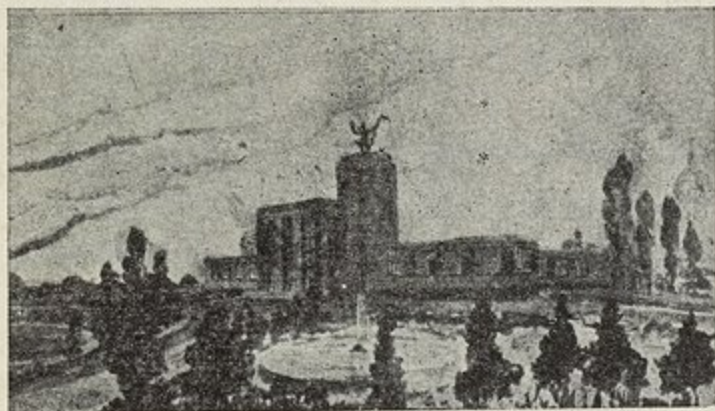
إخلاص وولاء ، وكان التجار الرومان يفدون في ذلك الوقت إلى الحبشة لمبادلة السكان سلعاً بسلع ، فيتصل بهم رئيس الحكومة ويكرم وفادتهم ويعمل على تيسير أعمالهم ؛ فسمع من حديثهم أن هناك رسولا يدعو إلى المحبة وعبادة إله واحد ، فاشتد تحمسه لدعوته ، وترك للرومان حرية العبادة في أى مكان يقيمون فيه كنائسهم ، وأباحهم الأرض بلا ثمن ، ومنحهم كل تكريم وحفاوة ؛ وبذلك نبتت بذرة المسيحية في أرض الحبشة . . . وانقضت الأعوام ، وانتهت فترة الوصاية ، فأعرب فرومانس وقريه للإمبراطورة الأم والإمبراطور الشاب عن رغبتهما في الرحيل إلى أرض أبويهما في روما ، ولم يثنهما إلحاح الملك عليها بالبقاء ، بل آثرا الرحيل . . .

وعرج فرومانس على الإسكندرية ، حيث اجتمع بكبير أساقفتها ، وطلب إليه أن يوفد إلى « بلاد الكفار » عدداً من رجاله الأكفاء المخلصين لبث الدعوة المسيحية ونشر تعاليمها بين مريديها ؛ فما كان من كبير الأساقفة إلا أن ألحف عليه في الرجاء ليعود أدراجه ويتولى بنفسه مهمة نشر المسيحية في الحبشة ، ثم كرسه مطراناً على أكسوم وتوابعها ، فما لبث أن حول الإمبراطور عن دين أسلافه إلى دين المسيح . . .

هكذا شرح روفان في كتابه كيفية دخول الدين الجديد إلى الأراضي الحبشية ، ويؤيده الإتيوبيون فيما يذهب إليه ، مع فارق دقيق ، هو أنهم نسبوا لأنفسهم قصة « فيليب والخصي » الشهيرة ، كما زعموا أن كانداس كانت ملكة على (مروى) بالنوبة لا على الحبشة . وهذا

محض افتراء ، فلم يرد في أى سفر تاريخي أنها اعتنقت المسيحية ، فقد ظل أهل النوبة على دين الوثنية بعد اعتناق الأحباش للمسيحية نحو ثلاثة قرون ، فكيف يقال إن تابعها الخصى هو الذى قام بتنصير الأحباش ، ولو كانت هذه الدعوى حقيقية فمن الذى كرس الخصى وألبسه مسوح الكاهن ؟

يقول الأحباش رداً على ذلك إن الخصى هو الذى هداهم إلى تعاليم الأرثوذكسية ، ولما عاد فرومانس الذى سمي فيما بعد بالأب سلامه ، تولى تعميد من اعتنق المسيحية . . .



مبنى جمعية الشبان المسيحية في أديس أبابا

الحضارة البدائية

ليس لدينا عن الحضارة الحبشية البدائية إلا النذر اليسير من المعلومات ، فقد قدم إلينا كوزماس صورة حائلة اللون عن علاقات الأحباش التجارية بأهالى قلب أفريقيا خلال القرن الرابع الميلادى ، وفى هذا الصدد يقول المؤرخ : إن ملك أكسوم كان يمنح سكان المناطق الواقعة حول بحيرة تسانا (الآجاو) حيث يستخرج الذهب من باطن الأرض ، امتيازات خاصة عن طريق حاكم الولاية .

وكانت تخرج من عاصمة المملكة قافلة كبيرة تحمل المواشى وقضبان الحديد وكتل الملح ، وتجد فى السير حتى تصل إلى حدود أراضي الآجاو ، فتضرب خيامها ، وتنثر ما لديها من خيرات حول المعسكر ، فيفد الأهالى ويختار كل منهم حاجته من السلع ثم يضع فوقها قطعة من الذهب بحجم حبة الفول ، وينسحب ؛ فإذا رضى البائع أخذ قطعة الذهب ونال المشتري بغيته ، وإن لم يرضه الثمن ، ترك الحبة فوق البضاعة ، فإما أن يضيف إليها المشتري حبة أخرى وإما أن يستردها فيقبل على شرائها شخص آخر !

وتستمر هذه المساومة عادة نحو خمسة أيام ، ثم تعود القافلة أدراجها ، وتقطع فى طريق الذهاب والإياب ما لا يقل عن ستة أشهر ،

ويتزود رجال البعثة بمختلف أنواع الأسلحة لدفع غارات قطاع الطرق
واللصوص الذين يعتصمون بشعاب الجبال .

والمفهوم أن القافلة كانت تسير في طريق الذهب سيراً وثيداً ،
بسبب ما يصحبها من قطعان الماشية ، أما في طريق العودة فتجد في
السير حتى لا تفاجئها السيول .

كذا نستطيع أن نقدم صورة ، غير واضحة المعالم ، لما كان عليه
البلاط الحبشى خلال القرن الرابع ، فقد أوقد إمبراطور الرومان
(جوستينيان) سفيراً يدعى جوليان إلى عاهل الحبشة ، للاتفاق على
مرور البضائع التي كان أباطرة الرومان يجلبونها من الهند عن طريق بلاد
الفرس ؛ ولما كانت الحرب مستعرة بين الإمبراطورية الرومانية ودولة
فارس ، فقد خشى الإمبراطور أن تقع بضاعته المستوردة غنيمة في
أيدي الأعداء ، فهدها التكفير إلى الاستعانة بعاهل الحبشة المسيحي
الصديق على مرور وارداته عبر أراضيه .

وإذا كان هذا المشروع قد أخفق ؛ فقد كتب السفير جوليان
وصفاً رائعاً مسهباً للبلاط الحبشى ، ولكن هذا الوصف لم يبق منه على
مر الأيام إلا النذر القليل . . .

فقد ذكر أن ملك الحبشة كان شبه عار ، ينتطق بقطعة من القماش
موشاة بالذهب تخفى عورته وتتدلى على ظهره ، وفي أعلى بطنه قطع
مستطيلة من الحرير المحلى بالآلآء ، ويضع حول معصميه أساور
من الذهب ، أما غطاء رأسه فكان من قماش التيل ، تتدلى على جانبيه

أربع ذلاذل ذهبية ، وحول عنقه قلادة من الذهب الخالص ، وكان إذا خرج في موكبه ركب عربة ذات أربع عجلات ، يجرها أربعة أفيال سود ، قد حليت جوانبها ومقعدها برفائق الذهب . وكان يرتدى درعاً من الزرد المذهب ، ويحمل حراباً صغيرة مذهبة ، ويحف بركبه مستشاروه وقد ارتدوا أفخر الملابس ، وحملوا مثل الحراب التي يحملها الإمبراطور ؛ وكان يسير خلف الموكب الملكي جماعة من العازفين على الناي .

ويضيف السفير أنه حينما دخل على عاهل البلاد ركع في حضرته وعظمه حتى كادت جبهته تمس الأرض ، ولكن الإمبراطور رجاه أن يستوى على قدميه ، فتقدم نحو العرش ورفع إلى الملك كتاب سيده إمبراطور الرومان ، فأخذه وطبع قبلة على خاتم الكتاب ، وأبدى بالغ إعجابه بهدايا أخيه الفاخرة ، ثم فض الرسالة الإمبراطورية ودفعها لمن يترجمها له .

وتنطبق هذه الصورة التي تعبر عن أجماد أوائل ملوك الحبشة على الآثار الباقية من عصرهم في كتدراية أكسوم تمام الانطباق ؛ فهذه بعض المسلات الضخمة المنحوتة من الجرانيت قد تفوق في حجمها وارتفاعها المسلات المصرية ، إلا أنها خالية من النقوش والرموز ، فلا يعلم إلا الله ماذا كان الغرض منها وما دلالتها ، إلا أن تكون مهداة إلى أحد الآلهة التي كان يعبدها الوثنيون منهم في ذلك الزمان ، وربما كانت هذه المسلات قائمة في أمكنتها لتحديد القبور الملكية ، بيد أن طرازها غير

معروف على كل حال ، وإن كانت تشبه إلى حد ما المسلات المصرية ، ولعلها كانت من وحيها ، لولا أن قواعدها مستطيلة لا مربعة كما هو مألوف في شبيباتها ، كما أن أعاليها لم تكن هرمية الشكل ، بل كانت أسطوانية يعلوها هلال ، وأكبر الظن أنه رمز ديني ، لأن له شبيهاً على قطع العملة التي كانت آنذاك متداولة في أكسوم . . .

هذا وتقتصر زخرفة المسلات الأكسومية على أبواب صورية في أسطح القاعدة الأربعة ، وتعلوها أشكال طوابق يحتوى كل طابق منها على عدة نوافذ ، فيخيل لناظرها عن بعد أنها أبراج مشيدة من حجر الجرانيت الصلب . وعلى كل حال فإن هذه المسلات تدل على عظمة بناتها من ملوك أكسوم ، الوثنيين منهم والمسيحيين الأوائل .

وقد ظلت الثقافة الحبشية تنتشر خلال ستة قرون ، فحلت مكان الثقافة الإغريقية المستوردة ؛ وكان أول ملك حبشى عرف في التاريخ ، ممن نهلوا من ثقافة الإغريق ؛ وظلت اليونانية تستخدم لغة رسمية في الحبشة وتدون بها المراسيم خلال القرن الثالث الميلادي .

ثم استعملت لغة (الجيز) مكانها ، وأخذت اليونانية تنمحى شيئاً فشيئاً حتى زالت .

ولعل ثقافة (فرومانس) اليونانية كانت هي السبب لما ناله من حظوة لدى ملك أكسوم ؛ إذ رأى أن يستخدم الفتى في علاقاته الدبلوماسية مع الدول الأجنبية .

أما في القرن الرابع فقد كان حاكم ميناء أدوليس يجهل اليونانية ،

والدليل على ذلك أنه لجأ إلى أحد التجار لترجمة لوحات بطليموس وأفيلاس التي كانت مخطوطة باليونانية .

وكان الملك (السباعا) الذى أوفد إليه الإمبراطور الرومانى جوستينيان سفيراً ، يجهل اليونانية كذلك ، فقد لجأ إلى مترجم لينقل إليه فحوى رسالة الإمبراطور . . .

ولا غربة فى أن تظل الكتابة على النقود الحبشية باليونانية زمناً طويلاً بعد ذلك ، فهذا شأن الشعوب المتأخرة إلى أن تجد طرازاً جديداً من العملة فتأخذ به ، والشاهد على ذلك أن أوائل الخلفاء المسلمين نقلوا عن البيزنطيين أشكال نقودهم ، فضربت النقود العربية وعليها رسم الصليب ؛ وكذلك كانت الحال فى الحبشة ، إذ ظل ريال مارى تيريز متداولاً حتى نهاية القرن الماضى ، وما زال يستعمل حتى الآن فى كثير من نواحي الحبشة . . .

هذا والمفروض أن اليونانية كانت لغة الكنائس فى الأصل ، وقد أدخلها التجار الرومانيون الأوائل الذين وفدوا إلى الحبشة وعاشوا فى ربوعها ؛ وكان أول العهد بترجمة التراتيل والأناجيل إلى لغة (الجيز) فى الربع الأخير من القرن الخامس ، حينما بدأ الأحباش يدخلون فى الدين المسيحى أفواجا ، أما مترجمو هذه الأسفار الدينية فجماعة من أولياء المسيحية عرفوا فى التاريخ باسم القديسين التسعة ، ولعلمهم كانوا من الرهبان السريان الذين نزحوا من سوريا إلى الأقطار الحبشية ، وقاموا إلى جانب ما أدوه من خدمات للمسيحية بترجمة عدة مؤلفات يونانية ، أخصها ما يتصل بأصول الرهبنة .

الكنيسة الحبشية

سبق أن ذكرنا أن بطريرك الإسكندرية هو الذى رسم (فرومانس) أول أسقف لدولة أكسوم ، ومنذ ذلك العهد درج باباوات الكرازة المرقسية على تعيين مطارنة الحبشة ، بوصفهم أصحاب الحق دون غيرهم فى هذا التعيين ، على خلاف الكنائس الشرقية الأخرى التى لا تعترف بالمركزية إلى هذا الحد .

ويؤدى المطارنة مهامهم ويتولون أعباءهم نيابة عن البطريرك وباسمه ، وليس لهم حرية التصرف فى مناطق اختصاصاتهم ، وقد طبقت السياسة المركزية المذكورة ، على غرار ما درجت عليه الكنيسة القبطية ، فى الحبشة أيضاً ، فأصبح الكاتوليكوس ، الذى يلى البطريرك فى ترتيب الرتب الكهنوتية ، ذا امتيازات وحقوق محدودة على الأراضى التابعة لكنيسته . وقد ابتدع الأقباط مادة قيل أنها قد تقرر فى المجمع الكهنوتى الأكبر الذى عقد فى (نيسيه) قبل تأسيس الكنيسة الحبشية - تنص على ألا ينتخب الإثيوبيون كبير أساقفتهم وإنما يعينه بطريرك الإسكندرية ، وهو وإن كان يعادله من الناحية الشرفية فى المقام والرتبة ، لا يستطيع تكريس من دونه من المطارنة ، أى أنه لا يتمتع بكل سلطان البطريرك المرقسى . . .

كما ينص قرار المجمع الكهنوتي على أنه لو فرض - وهو فرض مستبعد - أن عقد مجمع الكرادلة برئاسة البابا في روما ، فإن بطريرك الحبشة يكون هو التاسع في الترتيب التنازلي بين سائر بطارقة العالم .

أما امتيازات مطران الحبشة ، أو (أبونا) كما يحلو للأجباش أن يسموه ، فغامضة غير محدودة ، إذ يبدو أنه كان من سلطاته في وقت من الأوقات أن يرسم ما لا يزيد على سبعة أساقفة ؛ والحكمة في تحديد هذا الرقم ، أنه بمقتضى القوانين الكهنوتية ، لا يمكن أن يتم اختيار بطريرك قبضى إلا إذا توافر من الأساقفة اثنا عشر على الأقل .

وفي الحملة تعتبر الكنيسة الحبشية تابعة للبطريركية المرقسية تبعية تامة في العقائد والتطبيقات والأنظمة والمراسيم على حد سواء . . .

فى ظلمات التاريخ

يعتبر ظهور الإسلام نقطة تحول فى تاريخ الحبشة ، فقد ظلت هذه المملكة ، حتى ذلك العهد ، على اتصال دائم بحضارة تترسم خطاها وتهتدى بهديها وتسير طيعة فى أعقابها ، دون أن تتأثر بالمؤثرات الخارجية أو الأحداث التى كانت تتوالى على العالم

وكم اضطهد أباطرة الرومان أعداء المسيحية خارج نطاق إمبراطوريتهم ونكلوا بهم ، فتعقبوا الفرس الذين كانوا يعتنقون ديانة زورواستر ، وأحلافهم اليهود والوثنيين ، ولكن الإمبراطور جوستنيان الرومانى على الرغم من شدة تعصبه ، ظل مرتبطاً بأطيب العلاقات بملك أكسوم (السباعا) ، ولم يحاول مرة أن يكرهه على الخروج عن معتقداته التى ورثها عن أسلافه منذ عهد سليمان إلى أن ترعرعت المسيحية وتأصلت جذورها فى الحبشة وأصبحت دين الدولة الرسمى ، وظلت صلات المودة مستمرة مع دولة الرومان المسيحية . . .

ثم امتدت فتوح المسلمين إلى فلسطين وسوريا ومصر عام ٦٤٢ ميلادية ، فأصبحت دولتا الحبشة والنوبة فى عزلة تامة عن العالم الخارجى ؛ ومنذ ذاك الحين غرق تاريخ الحبشة فى دياجير الظلام ، فلا نكاد نعرف عنه إلا ما يأتينا لماماً من تواريخ البطارقة الأقباط ، وتلميحات أو

إشارات في كتب المؤرخين والجغرافيين العرب ؛ ثم بدأت خيوط الفجر تظهر في سماء التاريخ الحبشى قرب نهاية القرن الثالث عشر الميلادى ، فراح الكتاب الوطنيون يدنون الأحداث المحلية على صورة بدائية قريبة الشبه بما يروى في الأساطير الشعبية من مغامرات أبى زيد الهلالي ، إلى أن هبط البرتغاليون في الأقطار الحبشية خلال القرن السادس عشر ، فصار لدينا عن تاريخ الحبشة مجموعة من الوثائق والملاحظات عن تطور المدنية الحبشية ، وضعها عدد من الكتاب والباحثين الممتازين .

فيروى أن أول اتصال بين الأحباش ودولة الإسلام الفتية لم يكن طابعه العداء أو بقصد العدوان ؛ فقد رحب ملك الحبشة في بلاطه بالمسلمين الذين هاجروا من مكة الوثنية في بدء الدعوة المحمدية . . .

وقد ورد في كتب السيرة أن سيدنا محمداً بعث إلى ملك الحبشة قبل أى ملك آخر من ملوك الأرض ، برسالة دعاه فيها إلى الإسلام بدين الله الخفيف ، ويقال إن ملك الحبشة تلقى هذه الدعوة بما يليق بها من تبجيل وحسن إدراك ، بعد أن تبين صدق محمد واعترافه بالنبوة العيسوية وطهارة السيدة العذراء مريم .

وقد آمن بعض الأحباش برسالة محمد ، إلا أن ملوك الحبشة ظلوا على دين آبائهم ، ومع هذا لم يمتد جهاد الإسلام إلى هذا القطر المسيحى .

نعم إن العلاقات بين الأحباش وبعض خلفاء المسلمين لم تكن علاقات ود بصفة مستمرة ، فقد كان رعايا ملك أكسوم يستأثرون دون

سواهم بتجارة البحر الأحمر ، وكثيراً ما كانوا يشنون الغارات على سواحل شبه جزيرة العرب ، كما حدث خلال عام ٧٠٢ إذ اقتحم الأحباش ميناء جدة ، وخيل لبعض الناس أنهم سيمضون في طريقهم إلى مكة لتحطيم الكعبة ، فما كان من الخليفة إلا أن جرد حملة استولت عنوة على الموانئ الحبشية التي كان يلجأ إليها القراصنة الأحباش . . .

ويقال إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعث بأحد مواليه المغضوب عليهم منفياً إلى ميناء مصوع ، مما يدل على أن هذا الميناء كان ملكاً للعرب منذ عام ٦٣٤ ، على أن هذه الملكية لم تدم طويلاً ، وآية ذلك اعتداء القراصنة الأحباش على الأراضي العربية ذاتها .

ولم يتم استيلاء العرب على المنطقة الساحلية الحبشية إلا في القرن الثامن ، كما سبق أن ذكرنا ، انتقاماً لما فعله الأحباش في جدة .

ويرى زائر القصر الذي بناه الوليد الأول (٧٠٥ - ٧١٥ هجرية) صورة زيتية ضخمة تضم ، فيما تضم ، نجاشي الحبشة إلى جانب قيصر الروم وكسرى أنوشروان ولذريق آخر ملوك أسبانيا ، وكلهم ممن دانت عروشهم للعرب وخضعوا لسلطانهم .

ولا نسوق هذا افتياتاً على التاريخ ، فقد كانت جزر دهلاخ الواقعة تجاه الساحل الحبشي في أيدي العرب الذين قضوا على القراصنة الأثيوبيين قضاء مبرماً ، كما دُمر في ذلك العهد ميناء (أدوليس) فلم يبق له بعد ذلك قائمة .

وبعد ضياع الموانئ انقطعت أسباب الاتصال بين الأحباش والعالم

الخارجى انقطاعاً تاماً ، فولوا وجوههم شطر الجنوب خلال القرنين
التالين ، وراحوا يوفدون المبشرين إلى ولايات أمهرا وشوا ، لنشر المسيحية
بين سكانها المتوحشين .

وبينما كان ملوك الحبشة يخطبون ود أقرانهم الملوك المعادين للعرب ،
أخذت قبضة الخلفاء المسلمين تتراخى عن الساحل الحبشى ، وانضوت
قبائل (بيدجا) - الوثنية التى اعتنقت الإسلام - تحت لواء ملوك
اليمن .

وفى أواخر القرن التاسع أخذ ملوك الحبشة يستردون أراضيهم الساحلية
التي كان يحتلها العرب ، فعادت الحبشة مرة أخرى دولة بحرية تجارية
تربطها باليمن علاقات الصفاء وتبادل المنافع ، ويؤدى المسلمون من سكان
جزائر دهلاخ وميناءى مصوع وزيلع الجزية للعاهل الحبشى المسيحى .

وظلت مملكة الحبشة مزدهرة حتى سنة ٩٧٥ ميلادية ، ثم أصابها
نكسة نورد أسبابها فيما يلى ، كما جاءت فى تاريخ بطارقة الإسكندرية :

كتب النجاشى إلى جورج ملك النوبة يستنجد به من شر ملكة
وثنية طغت على بلاده وأذلت رعاياه وأحرقت الكنائس والأديار فى بلاده .
وكان سبب هذه البلايا والنكبات التى انصبت على بلاده فيما يرى ،
أن البلاد محرومة من بركة المطارنة ؛ وكان سبب هذا الحرمان أن أحد
أسلافه استدعى وهو على سرير الموت مطران الحبشة وطلب إليه
أن يقرر من الذى يلى العرش من بعده ، أولده الأكبر ، أم ولده
الأصغر ؟ فأشار عليه المطران بطرس باختيار الأصغر ، ولكن اثنين

من الرهبان المصريين (ميناس وفكتور) تدخلا في الأمر ، وأبرزاً كتاباً من بطريك الإسكندرية يرمي فيه المطران بطرس بالزور والادعاء ، ويقرر أن الزعيم الروحي الحقيقي هو (أبونا) ميناس؛ فتشجع الأخ الأكبر وطرد شقيقه بعد أن قتل الأب بطرس ، واستتب له الملك حيناً ، غير أن الراهب فكتور قد سول له الشيطان أن يستولى على نفائس الكنيسة ويفر إلى مصر ، حيث راح ينفق آلاف الجنيهات على ملاذّه . . .

فلما اكتشف النجاشي ذلك أمر بإعدام الأنبا ميناس ، وراح يبحث عن خليفة له ، فغضب بطريك الإسكندرية وأبى أن يعين خلفاً له ، كما سار على هذا النهج خلفاؤه من بعده ، فحرمت البلاد بركة المطارنة !

ومن أجل هذا الحرمان الذي انصبت بسببه النكبات على الحبشة ، يرجو الملك أخاه ملك النوبة أن يتشفع لدى البطريرك الأكبر ويطلب له الغفران ، ويعين للكنيسة الحبشية راعياً من قبله . . .

ويضيف كتاب « تاريخ بطارقة الإسكندرية » إن ملك النوبة وفق في مساعيه فنجح البطريرك البركة لابنه النجاشي ، وأرسل مطراناً إلى الحبشة ، فما لبث أن انتصر على أعدائه ، وفرت جيوش الملكة الوثنية إلى ديارها مهزومة .

ولو أننا سلمنا بحقيقة ما ذكر من أن اللعنة قد زالت عن الحبشة بعطف بطريك الإسكندرية ، فإننا لا نستطيع أن ننكر أن هيئة النجاشي قد أصيبت في ذلك التاريخ بجرح لم يلتئم ؛ فقد انفصلت عن التاج

أملاك شاسعة ، تأسست فيها ممالك إسلامية في جزر دهلخ ، كما ضاعت زيلع ، وانتشر الدين الإسلامى في معظم مناطق الصومال العليا ، فأصبح العداء سافراً والخطر جائئاً بصفة مستديمة على صدر ملوك الحبشة .

وفى عام ١١٥٠ أوفد النجاشى إلى القاهرة سفارة إلى البطريك ترجوه أن يعين خلفاً لمطران الحبشة ميخائيل الذى هرم ووهن عظمه ولم يعد يستطيع القيام بمهام رسالته ، فيما يزعم النجاشى . . . ولم يكن هذا هو السبب الحقيقى لطلب تعيين خلف للمطران ميخائيل ؛ وإنما يرجع السبب إلى أن هذا النجاشى كان قد اغتصب العرش من الملك الشرعى ، ، فأبى المطران ميخائيل أن يمنحه البركة ويتولى تنويجه . . .

فلما بلغت البطريك حقيقة الأمر ، بعث إلى النجاشى يقول له : إن تقاليد الكنيسة تحول دون تعيين مطران جديد ما دام الرسول الأصيل على قيد الحياة . ورفض راعى الكنيسة المرقسية أن ينزل على رجاء النجاشى رغم ضغط رئيس وزراء مصر عليه . . .

والمفهوم بداهة أن الغاصب الذى نحن بصددده ، هو مؤسس أسرة زجوى التى حكمت الحبشة مائة وثلاثة وثلاثين عاماً ثم نزل آخر ملوكها العرش عام ١٢٧٠ ميلادية . . .

ويبدو أن أعضاء هذه الأسرة الملكية الغاصبة ، رفعوا شأن قبائل أجاو على حساب العناصر الأرستقراطية السامية ، واتخذوا من مدينة

لاستا ، معقل قبائل الآجاو المذكورة ، عاصمة للملكهم ؛ وكان معظم أفراد الأسرة يحملون أسماء حامية الأصل أو مشتقة من الحامية ، كما كانت لغة الدولة الرسمية في عهدهم هي لغة (الجيز) .

وكانت هذه الأسرة ، كما أسلفنا ، تدعى — كما كانت تدعى سالفها — أنها من سلالة إسرائيلية ، مع فارق واحد ، هو أنها لا تنتمى إلى سليمان الحكيم ، بل إلى موسى عليه السلام . . .

على أن ملوكها اعتنقوا المسيحية ، وكانوا مضرب الأمثال في التقى والورع ، فأقاموا الكنائس ، ولم يضمنوا بمال في سبيل زيادة الأديار ودور العبادة والتنسك ، وخاصة في البقاع الجنوبية ؛ كما ينسب إليهم الجانب الأكبر من أجماد الحبشة في القرون الوسطى .

ولا يسع الباحث إلا أن يدهش حين يرى تلك الكنائس التي نحتت كل منها من صخرة واحدة ، وتم تفريغ باطنها ، وحليت جدرانها الداخلية برسوم بارزة تمثل القديسين . . .

ولعل أغرب هذه الكنائس وأفخمها كنيسة (مخلص العالم) التي قُدِّت كذلك من صخرة واحدة ، يبلغ طولها ٣٥ متراً ، وعرضها خمسة وعشرين متراً ، وتحيط بها أعمدة ضخمة ، وينقسم داخلها إلى خمسة أجنحة ، كما تزين جدرانها صور بارزة للملك أسرة زجوى ، وبعض الرسل . . .

ولم يثبت بصفة قاطعة من الذى أوحى ببناء هذه الكنائس الفخمة ، ومن الذى قام بتصميمها ، غير أن الأساطير الحبشية تنسبها إلى جماعة

من البنائين الأقباط ؛ ومهما يكن الأمر ، فإن بعض تفاصيلها المعمارية تدل على أنها مستوحاة من الطراز العربى تارة والطراز البيزنطى تارة أخرى .

وفى عدا هذه الآثار التى بقيت من عصر ما بين الفتوحات الإسلامية ، وفى عدا ما نعرفه من عودة الأسرة المالكة السلمانية — لا نكاد نعرف من تاريخ الحبشة بعد ذلك إلا قليلا مما يتصل بعلاقات الكنيسة الحبشية بالبطريركية القبطية فى الإسكندرية ، على أن هذه العلاقات قد اعتراها الوهن وقتاً ما ، نتيجة لفتح المسلمين لمصر ، إذ صارت المواصلات بين البلدين أكثر مشقة وأقل أمناً مما كانت فى عهد الرومان ، وكثيراً ما حدث فى أثناء الاضطرابات والفتن أن كانت البعثة الحبشية تتأخر عن الوصول إلى مصر عدة سنوات ، وكان بطريرك الإسكندرية يخضع لأوامر والى المسلم ، ولم تكن صلات والى به تخلو من الحذر والحيطه ؛ ألم يكن البطريرك على اتصال دائم بملوك الجنوب المسيحيين الذين يخضعون دائماً لتوجيهاته الدينية ؟

ولم يكن ملك الحبشة يستطيع أن يوفد بعثة للمطالبة بتعيين مطران جديد إلا بعد أن يظن إلى حسن صلته برجال البلاط فى القصر الملكى بالقاهرة ؛ وكان على البطريرك أن يؤدى إلى الخزانة المصرية جعلا كبيراً حتى يسمح له بتكريس مطران جديد للكنيسة الحبشية . . .

والتحليل الطبيعى لهذا الوضع الغريب يتلخص فى أن بطريرك الإسكندرية يهتم بطبيعة الحال بأن تظل امتيازاته قائمة بالنسبة لما له من

نفوذ على الكنيسة الحبشية .

وملوك الحبشة يخشون أن تحل عليهم اللعنة الإلهية إذا هم حرموا بركة البطريك أو انقطعت أسباب الاتصال بينهم وبينه .

والملوك المسلمون لا يجدون غضاضة في التفاهم على أمر لا يضيرهم من بعيد أو من قريب ما دام هذا التفاهم يكفل لهم وسيلة للقيام بضغط غير مباشر على جيرانهم المسيحيين ، للحصول على امتيازات مقابلة من الجانب الحبشى ، كالمطالبة للمسلمين الأحباش بحرية العبادة ، أو الترخيص لهم ببناء المساجد وإقامة الشعائر الدينية ؛ هذا إلى ما يصيبه الملوك المسلمون من كسب مادی يأتيهم على صورة هدايا من الذهب والعاج والعبيد . . .

وليس في تاريخ هذه العصور المتطاولة أى أثر لمحاولة من جانب ملوك الحبشة في سبيل التخلص من سلطان بطريركية الإسكندرية ، إلا ما قام به أحد الملوك في أواخر القرن الثانى عشر حينما حاول الضغط على المطران ميخائيل لكى يقوم برسامة سبعة من الأساقفة ، مستهدفاً بذلك أن ينتخب هؤلاء الأساقفة مطراناً جديداً ، فكان رد المطران ميخائيل أنه لا يستطيع التصرف إلا بإذن من البطريك ؛ فما كان من الملك إلا أن أوفد إلى ملك مصر سفارة كبيرة لإقناعه بالضغط على بطريك الإسكندرية للحصول على هذا الترخيص . . .

وكاد الملك ينتصر لرأى ملك الحبشة ، لولا أن أدخل البطريك في روعة أن هذه المحاولة ما هى إلا دسيئة يرمى ملوك الحبشة من ورائها

إلى التحرر من ربة السيادة المصرية « غير المباشرة » على هذه الأقطار ؛
فرفض الملك العرض الحبشى وفشلت المحاولة الانفصالية عن كنيسة
الإسكندرية .

وفى هذا العصر توطدت دعائم التقاليد الكنسية التى لم تزل سارية
حتى اليوم ، ومقتضاها ألا يجوز بحال ما أن يكون مطران الكنيسة
الحبشية من رعايا ملك إثيوبيا ، بل يجب أن يكون مصرياً ممن تدرجوا
سلك الكهنوت القبطى . . .

والعيب الظاهر فى هذا التقليد أن مطران الحبشة المصرى الذى
لا يعرف سوى اللغة القبطية (والعربية فيما بعد) لم يكن يستطيع أداء
رسالته على الوجه الأكمل ، لجهله بلغة الحيز أو اللغة الأمهرية التى
تلى بها الصلوات الكنسية ، فكان المطران مضطراً للاعتماد على مترجم .
وثمة صعوبة أخرى ، فقد يحدث فى أحيان كثيرة ألا يكون بين
الرهبان المصريين من يقبل أن يظل مبعداً طول حياته بين ظهرائى
شعب من الأحباش ؛ فكان بطريرك الإسكندرية يضطر فى تلك
الظروف لرسمه راهب لا ترتفع أخلاقه أو سيرته فوق مستوى الشبهات . . .
وعلى الرغم من بعض الحوادث العابرة ، يمكن القول إجمالاً إن مطارنة
الحبشة من المصريين كان لهم الفضل فى بقاء الكنيسة الحبشية على اتصال
مستمر - ولو على بعد - ببقية العالم المسيحى ، كما يرجع الفضل إليهم وإلى
رؤسائهم الروحانيين ، بطاركة الإسكندرية ، فيما كان يبذل من جهود
فى سبيل بعض الإصلاحات حيناً بعد حين . . .

ونضرب لذلك مثلاً ما حدث في منتصف القرن العاشر ، حينما كلف بطريك الإسكندرية مطران الحبشة بتعديل مراسيم الكنيسة وتحوير الشعائر الدينية بحيث تطابق الشعائر التي تقام في الكنائس المصرية ، بتحريم تعدد الزواج ، والتقرب إلى الله عند افتتاح دور العبادة بتقديم القرابين والذبائح ، ووضع قواعد جديدة تكفل عدم سهولة الطلاق على النحو الذي كان مألوفاً في الحبشة حتى ذلك العصر ، إذ كان ينص في عقد الزواج على حق الرجل في نبذ زوجته في نظير تعويض تتقاضاه المرأة المطلقة !

كما كانت المعاشرة (الزواج العرفي) مباحة ، ففُضِيَ عليها بنص من القانون الكنسي الذي يأبى تعميم الأطفال الذين يأتون عن هذا الطريق المحظور .

وكان من أثر هذه الإصلاحات أن أجبرت الكنيسة الملك على طلاق جميع النساء اللواتي كن في عصمته سوى زوجته الأولى . . .

ومن المحتمل أن أحد ملوك أسرة زجوى قد قام بمحاولة في سبيل الاتصال بالبابا في روما والخضوع لقوانين الكنيسة الكاثوليكية ، إلا أن الوثيقة التاريخية الوحيدة التي تؤيد هذا الاحتمال تعتبر غامضة ضعيفة الدلالة ؛ فها هي إلا صورة رسالة خطها يراع البابا إسكندر الثالث عام ١١٧٧ ووجهها إلى « ابنه المحبوب ملك الهنود » وأشار فيها إلى أن طبيبه الخاص فيليب قابل رسلاً أوفدهم الملك المحبوب - يعنى ملك الحبشة - لإبلاغه رغبته في اعتناق المذهب الكاثوليكي ، وأن ينزل له البابا

عن كنيسة في روما ومذبح في كنيسة الرسل بالقدس ؛ وتتضمن الرسالة وعداً من البابا بإجابته إلى جميع ما يلتمس ، على شرط أن يوفد إلى روما سفارة رسمية تحمل هذه الطلبات إلى البابا مكتوبة . . .

على أن هذا الكتاب ، كما يبدو ، لم يصل إلى صاحبه ولم يترتب عليه أى أثر إيجابي ؛ ومن الواضح أن أمر هذا الملك المجهول قد اختلط على قداسة البابا ، فظن أن الأحباش هنود !

ولكن الأمر الذى لا يحتمل الشك ، هو أن الرسل الذين قابلوا طيب البابا كانوا موفدين من قبل ملك الحبشة ؛ فمن الثابت تاريخياً أن الخلاف كان على أشده خلال هذه المدة بين ملك إثيوبيا وكنيسة الإسكندرية .

عودة الأسرة السليلية

لم تنقضى عدة أيام من عام ١٢٧٠ حتى شهدت الحبشة انقلاباً قام به أحد المطالبين بعرش الأسرة السليلية فأطاح بعرش آخر ملوك أسرة زجوى الغاصبة ؛ وكان هذا الانقلاب نقطة البداية لبعث الآداب الحبشية التي ازدهرت طوال خمسة قرون ، وكانت هذه الثقافة قاصرة حتى ذلك العهد على المؤلفات المنقولة عن اليونانية على أيدي خريجي مدرسة القديسين التسعة ؛ ثم تطورت الثقافة الجديدة فراحت تنهل من الآداب القبطية والعربية ، وخاصة الكتب الدينية في اللغتين ، وتتناول تاريخ السيد المسيح ، والرسائل الاثني عشر ، وقصة السيدة العذراء ، وما تم من معجزات في عصرهم ؛ كما وضع بعض الكتاب سير أولياء المسيحية الأحباش ، أمثال زاجتي لالبيالا وتقلا حاي مانود ، ممن عاشوا في ذلك العصر ؛ كما كتبت الأناشيد الكنسية والتراثيل الدينية ونماذج الصلوات بلغة الجيز ؛ وبلى هذه المؤلفات في الأهمية ما وضع من الأساطير الشعبية ، مثل كتاب « كبرا نوجاست » الذي يجمع بين أصول الأسرة السليلية وأمجادها في التاريخ ، وكتاب تاريخ اليهود بقلم يوسف بن غوريون ، وتاريخ الإسكندر الأكبر الذي يشتمل على بيانات تاريخية على جانب عظيم من الأهمية ، وقد نقل عن العربية ، ومؤلفه راهب مصري عاصر غزو المسلمين لمصر ؛ ويعتبر هذا

الكتاب مرجعاً قيماً لما فيه من سرد منطقي واقعي لبعض الأحداث التاريخية .

وفي هذا العصر أيضاً وضع تاريخ الحبشة المعاصر (وقتذاك) أما ما سبقه من عصور فليس هنالك لدينا إلا قوائم بأسماء الملوك تختلط تواريخهم وعهودهم ، فيتعذر معرفة المتقدم منهم والمتأخر ، على عكس المراجع التي توجد في محفوظات القصر الملكي بأديس أبابا منذ بداية القرن الرابع عشر ، والتي تسجل الأحداث التاريخية بحسب ترتيبها الزمني على صورة منتظمة ، وتروى أعمال الملوك وفتوحهم وما خلفوه من تراث تاريخي ، أمثال زازا ياكوب (ابن يعقوب) الذي ارتقى العرش عام ١٤٣٤ ، وخلفائه بيذا ماريام (بيد مريم) ولينا دنجل (بنحور العذراء) . ويروى أن الملك آمدا سيون (حكمة صهيون) الذي حكم الحبشة فيما بين سنتي ١٣١٤ - ١٣٤٤ ، كان في أول عهده فاسقاً خليعاً ، وكانت أولى ضحايا غوايته حظية أبيه ، ثم اغتصب اثنتين من شقيقاته ؛ فما كان من الراهب (هونوريوس) إلا أن استنزل على رأسه اللعنة ، وتوعده بالويل والثبور ؛ فكانت عاقبته الجلد في الطريق العام حتى فاضت روحه ، وفي تلك الليلة شبت النار في العاصمة فالتهمت الجانب الأكبر منها ، وقال رجال الدين تعليقاً على ذلك الحريق الجبار إن دماء الراهب هونوريوس قد تحولت إلى نيران أتت على الأخضر واليابس في المدينة .

وقد ساور الملك الشك في أمر رجال الكنيسة ، فاتهمهم بأنهم هم

الذين أشعلوا النار ، وأمر بأن يساقوا إلى المنفى ؛ ثم ثاب بعد هذا الحادث إلى رشده ، فصمم على أن يسلك السبيل السوى ، ويعف عن هذه الكبائر ، ويقود شعبه إلى المجد ، فجهز جيشاً كبيراً خرج على رأسه لسلسلة من الغزوات المظفرة ، فضم كثيراً من الأراضى إلى رقعة مملكته ، وكان يحكمها المسلمون ، على طول المنطقة الساحلية من إريتريا الحالية .

ويقال إنه كان يحرق بلاد المسلمين ويخضع ملوكهم فلا يلبثون أن يعودوا ليشنوا الغارات على أطراف مملكته ، انتقاماً لما نالهم على يديه ، فيحرقون الدساكر والمدن ويسبون النساء وينهبون كل ما تصل إليه أيديهم ، فيعود الملك إلى الغارة عليهم ، وهكذا . . . ولما طال الأمر بعساكره انقضوا من حوله وآثروا السلامة والراحة من هذه الحروب التي لا تنتهى ، فقام الملك على رأس حفنة من رجاله المخلصين يذود عن حياضه ، فلما رأى الجند ذلك عادوا إلى مليكهم خاشعين مستغفرين يطلبون إليه قيادتهم إلى النصر . . .

ويمضى التاريخ يعدد جروب آمدا ضد المسلمين ، وخضوعهم له ، ثم ثوراتهم عليه وحملاتهم الانتقامية على أراضيه ، حتى نهاية عهده ؛ كما تمتلىء صفحات التاريخ بأمثال هذه الحروب طوال القرن الخامس عشر الميلادى ؛ ويبدو أن معظم الدويلات الواقعة عند أطراف الأراضى الحبشية كانت قد خضعت لسلطان ملك إثيوبيا وكانت تؤدى كل منها الجزية المفروضة إلى خزانته .

ويمضى تاريخ ملوك الحبشة فى سرد تفاصيل الحملات الحربية التى جردها هؤلاء الملوك ، على وتيرة متشابهة ؛ ولسنا ندرى مدى الحقائق فيها ومدى التفاخر ؛ على أن الملك (زارا ياكوب) الذى حكم ثمانية وثلاثين عاماً فى منتصف القرن الخامس عشر ، كان جندياً عظيماً بقدر ما كان نزاعاً إلى الإصلاح ، وكان من قراراته الحكيمة القضاء على الوثنية فى بلاده ، وإنذار من لا يؤمن بتعاليم المسيح بالموت شتقاً ومصادرة أملاكه ، وجرد لحد الغرض جيشاً من الجواسيس لضبط من كانوا يعبدون الأصنام والنار خلصة ، وكان يحرم على أعوانه الأكل على موائد الغير ، والاتصال بالجنسى بالنساء دون الحليلات ، وقص شعورهم حتى لا تقع فى أيدي السحرة فيكيديون لهم

وكان زارا يحث الكهنة على إلقاء عظائهم خارج الكنائس فى غير أيام الآحاد .

وقصارى القول أن زارا لم يترك باباً إلا طرقه فى سبيل تحويل بلاده إلى المسيحية الصحيحة . وفى عهده تم الصلح بين الكنيسة الحبشية وقدااسة البابا فى روما ، فأوفد مندوبين عن كنيسته إلى المجمع الكنسى الذى عقد بمدينة فلورنسا عام ١٤٤١ ، والذى أعرب فيه مندوبو بطريرك الإسكندرية ومواليه مطارنة الحبشة عن الخضوع لسلطة الفاتيكان .

بيد أن هذا الوضع لم يؤخذ به فى الحبشة بصفة جدية ، إذ ظلت الكنيسة والشعب على إيمانهم بتعاليم الأرثوذكسية ؛ ويبدو أن أقطاب الكنيسة الحبشية استنكروا هذا التجاوز من جانب مندوبيهم ، فلم يرد

ذكر لهذه المناوصات التي دارت والقرارات التي اتخذت بمجمع فلورنسا في تاريخ الحبشة ، فيما عدا ما ذكر عن شخص يدعى (فران) قيل أن بابا روما قد انتدبه لتلقيين الأحباش تعاليم الكاثوليكية ، فلما مثل في حضرة الملك زارا ، واجهه بعدد من الفقهاء الأرثوذكس ، فأفحموا الرسول البابوي بما أدلوا به من حجج دامغة ، مما اضطره إلى التعجيل بالرحيل
ولعل هذا الرسول أول أوربي وطىء الأراضي الحبشية ، أما بعده فقد وفد إلى العاصمة رسام من فينسيا يدعى نيكولا برانكاليوني ، قيل أن الملك أعجب بلوحاته إعجاباً شديداً ، فعهد إليه بترتين جدران بعض الكنائس .

وما يذكر أن برانكاليوني هذا رسم لوحة زيتية للسيدة العذراء تحمل ولدها يسوع على ذراعها اليسرى ، فلما رأى رجال الدين الأحباش ذلك الوضع استنكروه واحتجوا لدى « ملك الملوك » بأن هذا الوضع لا يرضى السيد المسيح ، إذ أن الذراع اليمنى أفضل من اليسرى ، فلا بد من إحراق هذه اللوحة !

ولكن الملك انتصر للرسام ، وظلت اللوحة معلقة في كنيسة السيدة العذراء حتى أحرقت أثناء غارة شنها رجال قبائل (الغالا) على العاصمة الحبشية خلال عام ١٧٩٠ .

وعلى الرغم من توسلات برانكاليوني ، لم يسمح له قط بمغادرة البلاد ، ففضى فيها أربعين عاماً إلى أن قضى نحبه ، وقد وصفه الفاريز بأنه كان رساماً ممتازاً وسيداً مهذباً شريفاً وصاحب أفضال على

من يعرف ومن لا يعرف . . .
ولا شك أن الفن الحبشي قد تأثر كثيراً من اللوحات التي خلفها
ذلك الفنان العظيم في مختلف أنحاء الحبشة ، والتي شاهد معظمها
الفاريز ووضع لها وصفاً تفصيلياً دقيقاً .

القس حنا :

وقد سرت في أوربا خلال القرن الثاني عشر شائعات حول ملك
مسيحي غامض ، يدعى القس حنا ، يحكم بلاداً مترامية تقع في أقاصي
الأرض ، ولا يعرف حدودها إلا خالق السماوات . . .

وقد نشأت هذه الشائعات من كتاب قيل إن ذلك الملك بعث به إلى
الإمبراطور (مانويل كومنين) ، وعدد فيه عجائب مملكته ، فذكر أنه
صاحب الأمر والسيادة على ثلاثة وسبعين أميراً يؤدون له الجزية ، وأن في
بلاده أعجب المخلوقات وأغرب الحيوانات ، ومنها ما كان يعيش في أوائل
العهد الحجري ، كالثنين الذي يعيش في النار والذي صنع للملك من
جلده ثوب يرتديه ولا ينفع في تنظيفه الماء بل اللهب . . .

ويعضى الملك الغامض في كتابه قائلاً إنه يحكم سلالات الرجال
المدنسين الذين حكم عليهم الإسكندر المقدوني بالانزواء في مدن الشمال
فلا يغادرونها إلى يوم القيامة ، وإنه يقطن قصرًا وضع تصميمه القديس
توما (سان توماس) رسول المسيح إلى الهند ، وفي هذا القصر من العجائب
ما لم تره عين ولم تسمع به أذن ، ففيه مرآة ينظر فيها فينكشف أمام عينيه

مختلف أنحاء إمبراطوريته !

ويقول القس حنا إن لديه عشرين أسقفاً ، واثنى عشر كردينالاً ، هذا إلى جانب بطارقة الهند وسمرقند وصوص ؛ وعلى الرغم من هذا السلطان الواسع والمجد العظيم ، يأبى عليه ورعه إلا أن يطلق على نفسه لقب القس .

ثم يذكر أنه حينما يخرج للحرب يتقدم فيألقه ثلاثة عشر رجلاً يحمل كل منهما صليباً من الذهب الخالص ، ويتبعه عشرة آلاف فارس ومئة ألف راجل ؛ ولا أمنية له في الحياة إلا أن يزحف على القدس ويقضى على القوم الكافرين .

نقول : سرت هذه الشائعة في غرب أوروبا سريان النار في الهشيم ، وأخذها الناس على علاقتها ، فبنوا الآمال العريضة على ذلك الملك العظيم الورع في القضاء على المسلمين .

ولا ندري على أى أساس بنيت هذه الأسطورة العجيبة ، ولا كيف نسبت إلى ملك الحبشة ، اللهم إلا أن تكون قد تسربت عن طريق تقرير رفعه أحد الأساقفة في سوريا إلى البابا عام ١١٤٥ ، وذكر فيه أنه سمع عن شخص يدعى الكاهن حنا ، تقع مملكته فيما وراء جبال أرمينيا وفارس . ويذكر الأسقف أن هذا الملك بعد أن هزم الفرس نزل بجيوشه لينتزع القدس من أيدي المسلمين ، ولكنه عجز عن عبور نهر دجلة فعاد إلى بلاده . . .

ولعل هذا الأسقف كان يقصد الأمير جورخان التركي الذي أوقع

بجيوش سلجوق ملك فارس هزيمة منكرة ، فإن تحريف اسم الأمير التركي جورخان إلى الأب حنا (بيرجان بالفرنسية) يحتمل اللبس كما أن رنيه يكاد يكون واحداً في أذن الأوربي .

غير أنه ليس ثمة دليل على أن هذا الأمير التركي كان مسيحياً ، فلما كانت الهزيمة الماحقة التي ألحقها بجيوش سلجوق المسلم وذكرها المؤرخون المسلمون ، أضفوا على جورخان صفة (الكافر) ، وهي الصفة التي كانت تطلق في بعض مراحل التاريخ على المسيحيين (الكفرة) ، وهكذا دخل في روع الناس أن الأمير التركي كان مسيحياً . . .

وهناك سبب آخر ربما كان عاملاً من عوامل هذا الخلط ، فقد بعث البابا إسكندر الثالث إلى ملك الحبشة بكتاب دعاه فيه « حنا ملك الهنود العظيم » ، وراح يزجره على كبريائه الزائفة وزهو الأجوف الذي يعتبر من أبشع الخطايا ، وفي هذا ما يشبه الإشارة الصريحة إلى الكتاب الذي قيل إن حنا بعث به إلى الإمبراطور مانويل كومنين . . .

ولما وصلت بعثة المستكشفين الذين أوفدهم هنرى ملك البرتغال إلى ساحل أفريقيا الشرق ، للكشف عن طريق بحرى مأمون بين لشبونة وسواحل الهند ، ترمى إلى مسامعهم خبر ملك مسيحي عظيم يسيطر على الأواصي الواقعة إلى الجنوب من مصر ، ويدعى الكاهن حنا ، فبدأ الملك البرتغال أن يعقد محادثة مع هذا العاهل المسيحي ، فأوفد إلى بلاده بعثة على رأسها الرحالة (بارتوليميو دياز) لعقد اتصال بحرى مباشر بين البرتغال والهند عن طريق الساحل الشرقى الأفريقى ، وكان من أعضاء البعثة رحالة يدعى

بدرو دى كوفيلهام ، تمكن من الدخول إلى الأراضي الحبشية والمثل بين
يدى ملك البلاد ؛ فلما خبره الملك وعجم عوده ، اصطفاه وأبى أن يسمح
له بالعودة إلى بلاده ، ف قضى ثلاثين عاماً فى الحبشة ومات فيها .

ويبدو أنه بعد أن نجح البرتغاليون فى اكتشاف الطريق البحرى إلى
الهند ، قلّ اهتمامهم بالكاهن حنا عدة سنوات ، ثم عادوا فتحالفوا معه
لكى يأمنوا شر رعايا الدول الإسلامية التى كانت مبعثرة فى ذلك الوقت
على سواحل خليج عدن والخليج الفارسى ، وكان أهلها يشنون الغارات
على السفن البرتغالية .

وقد تولى عقد هذه المحالفة سفارة أوفدت إلى الحبشة فى عهد الملك
(لبنا دانجل) عام ١٥٢٠ ، وكان على رأسها فرانشسكو دياز الذى سبق
أن أشرنا إليه فيما سبق ، والذى وضع كتاباً ضخماً فى وصف البلاد
الحبشية ، يعتبر أول مرجع أوربى للباحثين فى تاريخ هذا البلد .

حضارة القرون الوسطى

في الحبشة

ما زال اللقب الرسمي الذى يحمله عاهل الحبشة منذ فجر التاريخ الحبشى المعروف ، هو ملك الملوك ، ويرجع هذا إلى أن المليك المذكور يتحكم فى مصاير عدة دويلات صغيرة يحكم البعض منها ملوك آلت إليهم عروشها بالوراثة ، ويحكم البعض الآخر أمراء يؤدى كل منهم الجزية السنوية لملك الملوك ؛ وكان منهم المسلمون والوثنيون الذين تقع إماراتهم على حدود الحبشة ، مبعثرة هنا وهناك فى الجنوب والغرب ؛ ولكى يوثق ملك الملوك علاقاته بهم كان يعقد على بناتهم ، ثم لا يلبث أن يحولهن إلى المسيحية . ، غير أن هذه السياسة لم تكن تثمر إلا فى النادر ؛ فقد روى الفاريز أن الحرب التى شبت فى عهد النجاشى لبنا دينجل ، كان سببها رفض ملك الملوك الزواج من ابنة ملك هايدا ، بدعوى بروز أسنانها ؛ ولما كانت قد تحولت عن الإسلام ، دينها الأصلى ، إلى المسيحية ، فقد أصبح من المتعذر أن تعود إلى بلاط أبيها ، فتزوجت بعد ذلك من أحد النبلاء ، واعتبر أبوها الملك هذا الزواج جرحاً أصاب كرامته !

(*) يأبى الإسلام على المرأة المسلمة أن تكون زوجاً لغير مسلم ؛ فإذا فعلت فهى فى حكم المرتدة عن دينها .

ومن المفارقات العجيبة التي تنتج عن هذه السياسة ، ما يحدث أحياناً من أن تصبح ابنة أحد الملوك المسلمين وصية على عرش الحبشة ، إذ أن القانون يقضى بأن تكون الملكة الأم وصية على الملك القاصر حتى يبلغ سن الرشد . . .

وقد حدث أن تولت هيلين ، الملكة الأم ، المفاوضات مع البرتغاليين ، وكان أبوها ملك « دوارن » مسلماً ، ومع هذا فلم تتساهل في حقوق بلادها ، بل حصلت لها في هذه المفاوضات على مزايا لا يستهان بها .

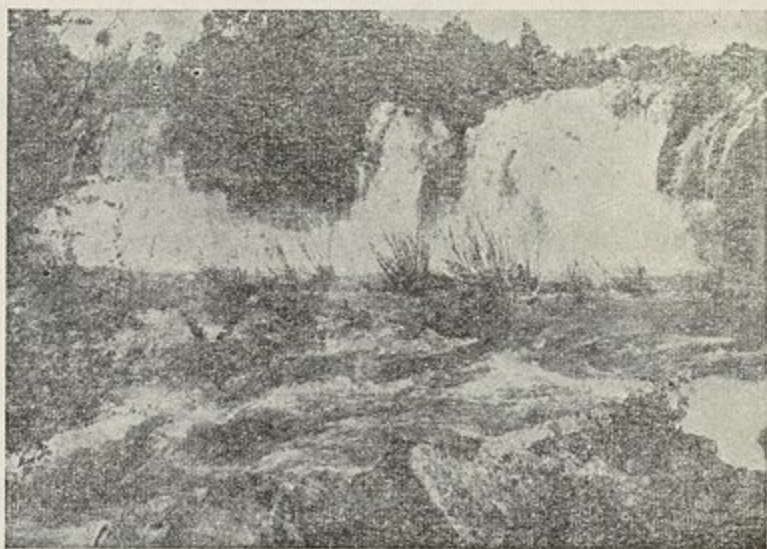
هذا ، وما زالت في قلب مقاطعات الحبشة يدفع ماوكها الجزية ويحتفظون بلقب الملكية ، مع أن أراضيهم قد صارت منذ قرنين ولايات تابعة للسلطة المركزية في أديس أبابا ؛ من هؤلاء حكام الأقاليم الواقعة على ساحل البحر أو القرية منه ، ويطلق عليهم عادة اسم (بهير ميدير) أو مدير البحر ، فهم يحتفظون بألقابهم الملكية القديمة ، ولكنهم لا يحكمون إلا بمشيئة النجاشي وتبعاً لأوامره ، كما يجوز عزلهم وتولية آخرين مكانهم .

وهناك فريق من الحكام يسمى كل منهم بالرأس ولا يستطيع مغادرة أراضيه إلا بأذن من الإمبراطور ، فإذا استدعى أحدهم إلى قصر النجاشي اصطحب جميع أفراد أسرته وحمل متاعه وأمواله ؛ فقد لا يعود إلى بلاده مرة ثانية !

ويقول الفاريز إنهم حينما يتلقون الأمر بالحضور إلى أديس أبابا ، يرحلون حتى يبلغوا أحد أطراف المدينة ، حيث يضربون خيامهم ويخلعون ثيابهم ، إلا ما يستر العورة ، حتى يحدد لهم موعد المثل بين يدي



شلالات ومنابع أنهار



الطبيعة العذراء في الحبشة !

الإمبراطور، وقد يطول بهم الانتظار أشهراً قبل أن يقفوا على سبب استدعائهم ؛ فإذا ما حل الميعاد ، سار الرأس وأهله حفزة خاشعين إلى القصر ، حيث يتقرر مصيرهم ، فلما أن يحظى الرأس بالرضا السامى ، فتقام الأفراح والليالى الملاح ، ولما أن يتلى عليه مرسوم العزل ، ولا معقب عليه ، فيتقبله دوى أن ينبت ببنس شفة !

ويتولى كل رأس قيادة الجنود الذين يعسكرون فى أراضيه ، كما يتحمل نفقاتهم ؛ وعليه أن يجبى المكوس ويؤدى الجزية التى يفرضها النجاشى .

وقد شهد الفاريز حفل أداء الجزية ، ورأى حاكم ولاية جوجام يتقدم حاسر الرأس عارى الصدر حاملاً صرة من الذهب ، ثم يقف فى البهو بعيداً عن العرش ثم يصيح قائلاً : يا صاحب الجلالة . . .
فيقال له : من أنت ؟

فيقول : خادملك المطيع الذى يسرج بغلتك ولا يأبى أن يؤدى لك خدمة مهما كانت وضیعة ؛ وقد جئت لسيدي بما أمرنى به !
فيقال له : تقدم !

فيسير راکعاً حتى يلمس جبينه أسفل درجات العرش ، فيضع الصرة الرمزية تحت قدمى الملك .

ويقول الفاريز إن أتباع الحاكم يمرون فى هذه الأثناء برحبة القصر حاملين الأقمشة القطنية الرفیعة وأكياس الذهب الذى يقدر وزنه بنحو ٣٠ ألف أقة محمولة على ظهور الإبل والبغال والحمير .

ويضيف الفاريز أن الأحباش يتبادلون السلع ويستخدمون في المقايضة قضباناً من الملح وأخرى من الحديد الذى كان السكان يتفننون فى صقله ليتخذوا منه حراياً ومدى .

وكانت إيرادات النجاشى فى ذلك الحين تزيد كثيراً على نفقاته ، فطعام الجيش وسائر حاجياته كان يتحملها الرعوس والحكام ، والرأس الذى لا تعسكر فى أراضيه حامية من الجند ، كان يحضر إلى العاصمة حاملاً نصيبه من النفقات عيناً .

وكان النجاشى يقطع أعيان الدولة وسادتها النبلاء أرضاً ، كما كان بعض الأعيان يحبسون بعض الأوقاف على الكنائس والأديار ليعيش رجال الدين من ريعها ؛ وفيما عدا ذلك كان الولاة والحكام يؤدون ما عليهم من جزية للإمبراطور الذى كانت نفقاته قاصرة على أهل بيته وحاشيته وأتباعه وحرسه الخاص . وكان يتنازل بين حين وآخر فيرسل هدية إلى أحد الحكام إعراباً عن رضاه عنه ؛ أما الهدايا التى كان يبعث بها إلى الملوك فكانت من الفخامة بحيث تلائم أقدار المهدي إليهم ، وتكاد تكون مساوية فى قيمتها لما يهديه إليه هؤلاء الملوك ، اللهم إلا سلاطين مصر وبطارقة الإسكندرية الذين كانوا يتلقون منه الهدايا القيمة النادرة دون أن ينتظر منهم إلا أن يعينوا له مطراناً جديداً .

وما تبقى بعد ذلك من الإيرادات كان يتكدس فى كهوف ومغارات لا يعلم أماكنها إلا أقرب المقرين إلى النجاشى وأكثرهم حظوة لديه ؛ وقد كاشف بيدرو دى كوفيلهام صديقه الفاريز بأن ملك الماوك يودع أحد

الكهوف القريبة من داره مقادير من الذهب تكفى لشراء الأرض وما عليها. وكان يضيف إلى هذا الكنز مزيداً من الذهب عاماً بعد آخر دون أن ينفق منه شيئاً . . .

ولم تكن حدود المملكة في ذلك الحين معروفة ؛ وفي ذلك يقول الفاريز إنها كانت تمتد بجزراً إلى ميناء سواكن ، ولا يعرف أحد مدى امتدادها في باطن أفريقيا ، أى فيما وراء ممالك تيجر وأمهر وأنجوت وشوا وديمبيا الواقعة على ساحل بحيرة تسانا .

وقد شهد الفاريز سفارة أوفدها ملك النوبة إلى النجاشى ليرجوه أن يرسل إليه بعض رجال الدين ، فاعتذر النجاشى بأنه لا يستقبل منهم إلا عدداً محدوداً من مصر ، وأن مطران الحبشة ليس له حق الرسامة ، فعلى أخيه ملك النوبة أن يلجأ إلى كنيسة الإسكندرية فتجيبه إلى ما يطلب . . . وكانت النتيجة أن ضعفت المسيحية في مملكة النوبة ، فقتلص سلطان عاقلها ، وتوالت غارات المغيرين عليه وهو عاجز عن صدها ودفع البلاء عن رعاياه ، إلى أن انهار ملكه ونشأت على أنقاضه مملكة سنار الإسلامية .

ولم يكن للنجاشى في ذلك الحين عاصمة واحدة ، بل كان يجرى التتويج في العاصمة القديمة (أكسوم) ، ثم ينتقل في مختلف البلاد على هواه ؛ إذ كان له في كل بلد قصر ، إذا حل فيه صارت المدينة عاصمة الملك حتى تستهويه مدينة أخرى فينتقل البلاط إليها ؛ فإذا ما حل بأرض ليس فيها قصر يليق بمقامه ، أقيمت خيام كبيرة ، إحداها للملك

وزوجاته وأطفاله ، وغيرها لأداء الصلوات وإقامة الشعائر الدينية ، وثالثة يقضى فيها الإمبراطور بين رعاياه ويفصل فى المنازعات .

وكثيراً ما كان النجاشى يسافر وحده متكرراً ، فيمتطى بغلا يحيط به ستة من الغلمان ، يحمل اثنان منهم المظلة الملكية ، ويمسك اثنان آخران بمقود البغل ، ويسير الأخيران وراء الركب . . .

ويمتاز ملوك الحبشة فى ذلك العصر بالنسك والتقشف ، وكان معظمهم يعيش فى عزلة منطوياً على نفسه ، يقضى الساعات الطوال فى التأمل والعبادة ؛ فإذا ما خيم الليل انتقل الملك إلى جناح الحريم ، حيث تعيش الحظايا والزوجات معاً ، وحيث تقام حفلات طرب ورقص بدائية . . .

وكان ملوك الحبشة ، كملوك المسلمين ، يستخدمون فى قصورهم غلماناً من غير دينهم ، ممن كانوا يقعون فى الأسر أثناء الحروب ، أو ممن يولدون لآباء من الأسرى ، فيحولونهم إلى النصرانية ، فإذا ما أظهر أحدهم نبوغاً ، واكتسب ثقة سيده ، انضم إلى الحرس الإمبراطورى الخاص ، أو أسند إليه منصب خطير فى الدولة ؛ وهكذا كان النجاشى محوطاً دائماً بفريق من الموظفين الذين نشأوا فى كنفه وتدرجوا فى مناصبهم تحت عينيه ، حتى إذا بلغوا أعلى المناصب اختار من بينهم اثنين يتوليان الوزارة والقيادة العليا ، واثنين آخرين يتوليان القضاء ، ثم خامساً يتولى أعمال الأمين الخاص .

أما القضاء فكان بدائياً ناجزاً ، ويتولاها فى العادة رجلان يوفدهما النجاشى إلى كل حاكم من حكام الولايات ، فيفصل أحدهما فى القضايا

ويقوم الآخر ، على حد تعبير الفاريز ، بأعمال محرر العقود .
 ويفصل القاضي في المنازعات الطفيفة ولا معتب لحكمه ، أما في
 القضايا الكبيرة أو المعقدة فيجوز الاستئناف أمام حاكم الولاية نفسه ،
 كما يجوز أن يرجع حاكم الولاية إلى النجاشي .
 أما محرر العقود فيقرر ما إذا كان الحكم قابلاً للاستئناف ،
 وفي هذه الحالة يتولى هو نفسه تحويل القضية على الحاكم ، أو يشير عليه
 بالرجوع إلى النجاشي .

ويظل المتهم مقيداً بالأغلال في السجن حتى ينظر في أمره ويصدر
 الحكم ببراءته ، ويتعين على أهل السجن أن يحضروا طعاماً له ولحارسه ،
 إذا كان متهماً بجريمة ؛ أما إذا كان سجيناً بناء على طلب أحد ، فإن على
 الشاكي أن يقدم الطعام له ولسجانه ، فإذا لم يفعل جاز للسجين المطالبة
 بإطلاق سراحه .

وكانت العقوبات عديدة متنوعة ، بعضها وحشي كبت الأعضاء ونزع
 الأظافر ، وتعد هذه الأخيرة عقوبة طفيفة عادية . . .

أما المجرمون السياسيون فكان مصيرهم النفي إلى الأصقاع الجبلية
 البعيدة ، وقلما كان المتهم يعود من منفاه حياً ، فقد جرت العادة أن يظل
 في المنفى حتى يموت !

وأما عقوبة الجلد فكانت في ظاهرها أكثر وحشية مما هي في الحقيقة .
 وكان المؤلف أن يطرح المتهم أرضاً وهو موثق الذراعين والقدمين عارى
 الظهر ، وتنال عليه السياط ؛ ولكن الضربات كثيراً ما تنزل على الأرض

فلا يصيبه منها إلا القليل ، وقد لا يصيبه منها شيء ، على حسب الأوامر
التي يتلقاها الجلادون !

ويقول الفاريز إنه شاهد في بعض الأحوال قضاة يطرحون أرضاً
ويجلدون لأنهم حكموا بما لا يرضى الله والكنيسة ، أو لثبوت تهمة الرشوة
عليهم ، فإذا ما نالوا جزاءهم عادوا من جديد يحكمون بين الناس ، دون
أن يחדش الجلد كرامتهم !

وفي الحبشة تقليد عجيب يقضى بإبعاد جميع الذكور من الأسرة
الملكية الحاكمة ، فيما عدا النجاشي وأولاده وأحفاده ؛ كما جرى العرف
على ألا يتولى المناصب الكبرى أو الشرفية إلا أبناء الظهور دون أبناء البطون ؛
وبما أنه لا يجوز بأى حال أن تطالب بالعرش بنات النجاشي أو ذرائهن ،
فانهم وأولادهم يعيشون أحراراً ولا يبعدون إلى المناطق النائية كغيرهم من
أعضاء أسرة الملك !

وقد روى الفاريز أنه شاهد ذات يوم في بلاط النجاشي راهباً
يخفى رسالة قيل أن أحد أولاد عمومة الإمبراطور قد حمله إياها ليرفعها إلى
البرتغاليين ليحرروه من إيساره ، فلما علم النجاشي بهذا التدبير ، أمر بأن
يؤتى بالراهب وحراس الحصن الذى يقبع ابن عمه وراء جدرانها ، وجلد
الجميع بالسياط حتى قضى عليهم !

ولا يعرف أحد على سبيل التأكيد منشأ هذا التقليد ، بيد أنه
يقال إن أول من أخذ به إبراهيم ، أول ملك مسيحي في الحبشة .
كما تروى الأساطير أن مائة النوبة الوثنية التي سحقته جيوش النجاشي في

القرن العاشر ، استولت على المنطقة الجبلية التي كانت منفي للأمراء ، وقضت عليهم جميعاً إلا طفلاً صغيراً نجا من المذبحة بأعجوبة ، وكان أحد أحفاده (يوكونو أمك) الذي أسترد العرش للأمة السلمانية .

وقبل أن يبدأ ميريام أحد أحفاد هذا الملك ، — وقد حكم من ١٤٦٨ إلى ١٤٧٨ ميلادية — هو الذي أعاد هذا التقليد الذي كان سارياً حتى أواخر القرن الثامن عشر ، ثم اندثر نهائياً إبان الحروب الأهلية التي اشتعلت حينذاك في الحبشة .

السفارة البرتغالية الأولى

كان استقبال النجاشي لأول البعوث البرتغالية ودياً في جملته ، ثم ارتفعت درجة الحفاوة بالضيوف عندما علم بجلالته أن أعضاء البعثة مسيحيون ويمثلون أنحاً مسيحياً ، فأسبغ عطفه ورعايته على الفاريز ، وراح يستفسره عما غمض عليه من شئون الدين ، ثم رجاه أن يطلعه على ما لديه من كتب الشرح وسير القديسين في الغرب ؛ ولم يكن الفاريز متصلاً بالقدر الذي يروى غلة الإمبراطور ويفسر له ما بين المذاهب المسيحية من فروق ، فجعل همه الأكبر أن يحصر المناقشة حول موضوع سيادة البابوية وضرورة خضوع كل مسيحي للتعالم الكاثوليكية ، والمطابقة بين شعائر الدين المتبعة في روما والشعائر التي تتمسك بها الكنيسة الحبشية

ولقد أثمرت هذه المناقشات التي دارت بين النجاشي والفاريز ، فعهد إليه النجاشي أن يحمل إلى البابا كتاباً يعلن فيه تمسكه بالمذهب الكاثوليكي . أما من الناحية السياسية فإن المفاوضات التي جرت بين النجاشي وسفراء البرتغال لم تأت بثمارها المرجوة ، ولعل هذا راجع إلى تفاهة الهدايا التي قدمتها البعثة ، وإلى تعالى رئيس البعثة واستكباره ، وهو أمر ترك أسوأ الأثر في نفس النجاشي .

وقد وقع أعضاء البعثة إلى ذلك في خطأ كبير ؛ إذ أطلعوا ملك الملوك على خريطة ظهرت فيها أملاك الكاهن حنا بصورة مبالغ فيها إلى حد بعيد ، في حين ظهرت ممالك أوربا ، ومنها البرتغال ، ذات رقعة محدودة ! فكان ذلك سبباً لزعزعة ثقة الإمبراطور وأنهيار آماله في أخيه ملك البرتغال وسلطانه ؛ فاقترح أن يشترك ملوك فرنسا وإسبانيا والبرتغال في حرب صليبية يشنونها على جيرانه المسلمين ؛ ولم يكن البرتغاليون يسعون إلى مثل هذا الهدف ، فاعترض رئيس البعثة محتجاً بأن كلا من هؤلاء الملوك الثلاثة يتحيز الفرصة لتوسيع رقعة أراضيهم على حساب الآخرين ، وأنهم ليسوا على وفاق فيما بينهم ؛ فأحدث هذا الاعتذار أثراً عكسياً في نفس الإمبراطور الذي أعرب عن بالغ أسفه لهذه الحال التي لا يرضى عنها مسيحي مؤمن ، وقال إنه لو كان بين جيرانه ملك مسيحي لاصطفاه خلا وفاقاً وأنزله من نفسه منزلة الشقيق !

وعلى الرغم من هذه المؤثرات العاطفية ، وافق النجاشي على التزول عن ميناء مصوع ليكون قاعدة بحرية للبرتغال في طريقهم إلى الهند ، ثم تطرق الحديث عن زيلع وسواكن ، فوعده النجاشي بأن يقدم للبرتغال عوناً من الرجال والمؤونة في نظير أن يبعثوا إليه عدداً من أرباب الحرف والفنون والصناعات اليدوية ، من بنائين ونجارين وحدادين وأطباء ومن إليهم ، كما طلب كمية من معدن الرصاص ليغطي بها أسطح الكنائس حتى لا تصيبها المؤثرات الجوية بالتلف . . .

ولما حان موعد رحيل البعثة ، حملها الإمبراطور كتاباً يعتبر

الوثيقة الدبلوماسية الأولى في تاريخ الحبشة ، وقد دونت باللغات الحبشية والعربية والبرتغالية ، واشترك في تحرير النص البرتغالي كوفيلهام والفاريز وكاتب البعثة ، ثم وضعت كل نسخة منها على حدة في كيس من الحرير الموشى بالذهب .

وفيما يلي مجمل هذه الرسالة الملكية :

« باسم الله الأب الذى لا أول له ولا آخر ، وباسم الابن الذى لا تراه العين إلا كما ترى وميض الكواكب فى بهيم الليل فتهدىها إلى سواء السبيل فى عرض البحار ، والذى أنجبته السيدة العذراء طاهرة الذيل دون أن يمسه بشر أو يعقد زواجها ، وباسم الروح القدس التى تحلق فى علياء السماوات وتحيط بجميع الأسرار ؛ آمين .

« هذه الرسالة صادرة عن نجور العذراء (اسم النجاشى عند تعميده) داود ، ملك الملوك ، حبيب الله ، وحامى الدين ، حميد داود بن سليمان ، إمبراطور إثيوبيا ورأس ملوكها ، وسيد أمراء شوا وكافات وفاتيجوار وجوجام وأمهرا وباجاميدرسى ودامبيا ؛ ووريث ملك سبأ ، وسيد الأقطار الممتدة حتى حدود مصر .

« إلى النور الساطع والملك القادر إيمانويل ، الفاتح بإذن الله ، وحامى المذهب الكاثوليكي ، صديق المسيحيين الوفي ، وعدو الكفرة والوثنيين ، سيد أفريقيا وغينا وصاحب البحر الأحمر ، وقاهر العرب والفرس والهنود . . .

« السلام عليك ، ورحمة الله تنزل على قلبك ، أيها القوى بدين

الله يسوع المسيح ، يا من تنقض على أعراب الأندلس بلا سيف ولا درع فتطردهم طرد الكلاب . . .

« والسلام على عقيلتك خادمة العذراء ، أم مخلص البشر ، والسلام على أولادك وأهلك أجمعين .

« والسلام على ربابنة سفنك التى تذرع البحار السبعة منشورة الشراع خافقة الأعلام حليفة النصر »

هذه هى مقدمة الرسالة ، أما موضوعها فسرده للسفارات التى سبق أن وطئت أرض الحبشة منذ عهد ماثيو ، ثم شكر على الصليبان الذهبية والهدايا الفاخرة التى جاءت من أخيه ملك البرتغال ، ورجاء ملح بالألأ يهدأ له بال حتى يستولى على مدينة القدس الطاهرة ، ثم إشارة أخيرة إلى صفات الكمال والعلم الواسع التى يتحلى بها أعضاء السفارة البرتغالية . . .

أما ما عدا ذلك من تفاصيل الاتفاق الذى عقد بين الطرفين فلا يستغرق من الرسالة الملكية أكثر من ستة أسطر ليس عليها من مزيد .

الفتوحات الإسلامية

والبعوث البرتغالية

وكان في الأفق وقتذاك سحب متكاثفة تنذر بعاصفة مجتاحة ؛ فقد فتح السلطان سليم مصر خلال عام ١٥١٦ ، وأخضع أهل الحجاز ؛ فأحدثت سيطرة العثمانيين على حوض البحر الأحمر تغييراً شاملاً في الموقف السياسي ، وكانت هذه الفتوح دماء جديدة تغذى روح الجهاد الديني الكامنة في نفوس المسلمين ضد أعدائهم ؛ كما أتاحت الفرصة أمام أمراء المسلمين ليدفعوا رعاياهم إلى ذلك الجهاد ، مستعنيين بما كان لدى الأتراك من أسلحة نارية حولت العصابات المخاربة إلى قوات نظامية تتوغل في غزواتها بأحدث الأسلحة التي عُرفت آنذاك .

ولم يكن الأحباش والبرتغاليون يدركون بدقة مدى الخطر الجديد الذي يتهددهم ، فظلوا ماضين في تنفيذ ما رسموا من خطة ؛ فيها هو ذا النجاشي يطلب إلى البرتغاليين أن يمدوه بعدد من مهرة الصناعات لتزويد جيشه بالقسي والنبال ، ثمناً للقواعد البحرية التي وافق على منحهم إياها ؛ وها هي ذى البعثة تتلصقاً في عملها فتقتضي زهاء ست سنين في عاصمة النجاشي ، ثم لا يكاد أعضاؤها يبحرون من ميناء مصوع حتى تنقض جيوش أحمد بن إبراهيم الغازي ، على الجيوش الحبشية ، فتصلبها ناراً

حامية من بنادقها حتى تمزقها شر ممزق ، ويختلط حابلها بنابلها ،
وتتبعثر فلولها كالهباء تذروه الرياح ؛ ثم تدخل جيوش الأمير المسلم أرض
الحبشة فتدمر قلاعها ، وتستولى على كنوز الإمبراطور ، ثم تنقض إحدى
الفصائل على منفي أمراء الأسرة المالكة فيعمل رجالها السيوف في رقابهم...
وتروى القصص الشعبية الحبشية أن ٩٠٪ من الأهليين تركوا
المسيحية ودخلوا في دين الإسلام ، ولم يبق على قيد الحياة من الأسرة
المالكة سوى النجاشي ونفر قليل من رجاله المخلصين ، اعتصموا بالمناطق
الجبلية الوعرة وواصلوا الجهاد . . .

وفي هذه المحنة يتجه النجاشي لبنا دينجل بتفكيره نحو أصحابه
البرتغاليين ، لعلهم يمدون له يداً ؛ فيوفد إلى بلادهم شخصاً مغموراً ،
هو جوان برموديز ، كان يعمل مساعداً في البعثة واستبقاه النجاشي رهينة
لديه حتى يعود السفير الحبشي إلى عاصمة البلاد . . .

فلما مثل جوان برموديز بين يدي ملك البرتغال وقص عليه ما جرى
الملك الحبشة ، أخيه في الدين ، اغرورقت عينا العاهل البرتغالي ،
وقرر أن يجرّد حملة من أملاكه في الهند لنجدة لبنا دينجل ، غير أن
وسائل الوصول إلى الحبشة لم تكن ميسرة في تلك الأيام . . .

وبينما كان البرتغاليون واقفين مغلولي الأيدي ، كان العثمانيون
يفتحون اليمن ، ويخضعون أمراءها ، ويقيمون على طول ساحلها حصوناً
منيعه ، لا سيما ميناء عدن ؛ فأصبح للأسطول التركي السيطرة التامة على
مياه البحر الأحمر خلال عام ١٥٣٨ .

غير أن البرتغاليين قاموا بغارة انتقامية على السويس ، ثم أنزلوا في ميناء مصوع أربع مئة جندي بقيادة خريستوف بن فاسكو دى جاما الرحالة الشهير ، ولكن لنا دينجل كان قد مات في هذه السنة وخلفه على عرش الحبشة ابنه كلوديوس (إقلاديوس) الذى استقر في أحد الأصقاع الجنوبية النائية بولاية شوا . . .

وكان في استقبال الحملة الملكة الأم التى كانت وقتذاك مختبئة في إحدى القلاع المنيعه ، فأرشدت قائد الحملة إلى الطريق للاتصال بابنها ، إلا أن الأمطار عاقت سير الحملة حتى شهر ديسمبر ؛ ثم واصلت الزحف نحو الجنوب ، فقطع الطريق عليها أحد الأمراء المسلمين ، واشتبك الفريقان في عدد من المعارك ، غير أن الحرب ظلت سجالا بينهما ، إلى أن حل موسم الأمطار التالى فانسحب الأمير المسلم إلى سهول دنكال دون أن ينال منه البرتغاليون منالا أو ينال منهم ؛ ولكن الأمير المسلم لم ييأس ، فأرسل إلى قائد أحد الحصون العثمانية الواقعة على الساحل المقابل في اليمن (قلعة زبيد) هدايا جزيلة ، كما أرسل إليه عدداً من أسارى الأحباش ذوى المكانة الرفيعة ، منهم ميناس أخو النجاشي ، فكان ردّ القائد التركى على هذه الهدية الكريمة أن أرسل قوة من حملة البنادق قوامها ٩٠٠ رجل ، انضمت لجيوش الأمير أحمد ، فما زالت تتعقب البرتغاليين حتى قطعت دابرتهم وأفنتهم عن بكرة أبيهم ، وفيهم قائد الحامية خريستوف دى جاما ، كما استولت على جميع ما كان لدى البرتغاليين من الأسلحة النارية . . .

ولما استتب الأمر لأحمد ، أخلى سبيل الأتراك وعاد مظفراً على رأس جيوشه إلى ولايته القريبة من بحيرة تسانا . . .

ولكن النجاشي كان قد التفت حوله ثمانية آلاف مقاتل ، ونصف ألف من الفرسان ؛ وأخذ أحد البرتغاليين الذين نجوا من معركة الإبادة يصنع البارود من القار والكبريت الذى يوجد بكثرة فى هذه الأنحاء ، فلما توفر لجيش النجاشي إقلاديوس قدر صالح من الذخيرة زحف ، على أراضي الأمير أحمد ، فكانت المفاجأة ، والتحم الجيشان ؛ وكان أحمد على رأس إحدى الكتائب ، فأصيب فى مقتل ، وما لبث العساكر الصوماليون أن ولوا الأدبار ، وظل الأتراك يقاومون حتى مات أكثرهم ، ولم ينج من حملة البنادق سوى أربعين مقاتلاً . . .

وتحولت الريح بعد هذه الهزيمة ، فأصبح للنجاشي جيش نظامي يجيد استخدام الأسلحة النارية الحديثة التي كان يعتمد عليها الأمير أحمد فى إحراز النصر . . .

أما البرتغاليون القلائل الذين ظلوا على قيد الحياة فقد رجاهم النجاشي أن يظلوا فى خدمته ويعيشوا معززين مكرمين بين إخوانهم فى الدين ، فأذعنوا لإرادته واختلطت ذرايرهم بأهل البلاد جيلاً بعد جيل حتى اندمجت وتأقلمت ؛ واسترد النجاشي جميع الأراضي التي فقدتها فى حروبه مع المسلمين ، كما وطد سلطانه ونفوذه فى الولايات المتاخمة للحدود بعد أن كتب له النصر على سكانها الوثنيين .

وأخذ النجاشي يعمل على إصلاح ما أفسدته الحروب ، ودعم

أركان السلام ، فأعاد بناء الكثير من الكنائس التي تخربت ، وأمر بنسخ الكتب والمؤلفات التي أحرقت ، ولكنه ما لبث أن ذاق مرارة الهزيمة ، في أواخر عهده ، على أيدي العثمانيين الذين احتلوا ميناء مصوع ، وأقاموا فيه حامية كبيرة تحت قيادة أحد الباشوات ؛ ولم يكن النجاشي يأمل في هذه المرة أن يأتيه المدد أو تسعفه النجدة من جانب أحلافه البرتغاليين .

هذا ، وقد حدث في عهد النجاشي إقلاديوس أن ادعى برموديز أن بابا روما قد عينه مطراناً للحبشة ، وكان النجاشي في ذاك الحين في أشد الحاجة لمعونة البرتغاليين الذين كانوا يؤازرونه في حروبه مع المسلمين ، فامتلل للأمر الواقع وسكت عن ادعاءات برموديز ، إلى أن كتب له النصر فأبعده إلى أحد المعازل النائية ، وأقطع من تبقى من البرتغاليين مساحات شاسعة من الولايات الجنوبية يحيون فيها حياة كريمة ويصيرون منها رزقاً حسناً .

وأخيراً تمكن برموديز من الفرار إلى البرتغال ، حيث عاش بعد ذلك سنوات ، ووضع كتاباً عن ذكرياته في الحبشة ، ملأه بالأباطيل والترهات ؛ وكان هذا المؤلف حتى وقت قريب يعتبر — مع الأسف — من المراجع التاريخية التي يعتمد عليها الباحثون في شؤون الحبشة ، إلى أن وضحت الحقائق وأثبتت الوثائق التي تحتويها محفوظات الفاتيكان أن ذلك الأفاق لم يجتمع مرة واحدة بالبابا ، وإنما تلقى بركات قداسته في أثناء عودته من البرتغال حين أرسله النجاشي لطلب نجدات من مليكها .

محاولات الجزويت لكثلكة الحبشة

الآب أوفيدو :

أثارت الأنباء الواردة من الحبشة اهتمام جماعة الجزويت ، فرأت أن تبشّر بالكاثوليكية بين سكان ذلك البلد ، وكان البابا معارضاً في ذلك ، ولكن الملك يوحنا الثالث ، عاهل البرتغال ، أشار عليه بإيفاد بطريك روماني ، فقرر أن يسند هذا المنصب الخطير إلى جان باريتو ، على أن يعاونه اثنان من المطارنة ، هما أوفيدو وكارنيرو ، حتى إذا مات خلفه أحدهما .

وأبحرت البعثة إلى الهند حاملة إلى نائب الملك هنالك أمراً كتابياً من الملك بأن ترافق البعثة إلى الأراضي الحبشية قوة من الجنود قوامها ٥٠٠ رجل .

غير أن نائب الملك كان يعلم علم اليقين أن إقلاديوس ، إمبراطور الحبشة ، يأبى أن يزاول الكاثوليك نشاطهم على حساب الأرثوذكسية ، وخاصة إذا كان هؤلاء المبشرون يعتمدون على قوة عسكرية ، فأرجأ تنفيذ الأمر الملكي بدعوى إعداد الحملة ، وفي أثناء ذلك مات البطريك باريتو قبل أن تكتحل عيناء بمراى رعاياه الجدد ، واقتصر الأمر على سفر أوفيدو يعاونه عدد من رجال الدين .

ولعل القارئ لم يزل يذكر تصرفات الدعى برموديز التى أشرنا إليها فى الفصل السابق ، تلك التصرفات التى أوغرت صدر النجاشى على الكنيسة الكاثوليكية ، لما لمسه من حرص أتباعها على السيطرة وإملاء الإرادة .

ولسنا نجد تفسيراً لقبول النجاشى لبنادينجل الاعتراف بسلطة البابوية فى روما ، إلا بأنه مجرد تسليم من جانبه بأن البابا هو رأس الديانة المسيحية فى جميع أقطار الأرض ؛ ولكنه مع ذلك لم يكن ليرتضى أن يعين البابا بطريكاً فى الحبشة بدلا من المطران الذى تجرى رسامته فى الاسكندرية .

وكيف يقبل النجاشى ، صاحب السلطان المطلق ، أن يقف مطران مهما يكن مصدر سلطته الكنسية ، حائلا دون تنفيذ إرادته ! نعم ، من حقه إسداء النصيح ، وتقديم المشورة ، ولكن ليس له أن يصدر الأوامر إلى المليك ، كما حاول من قبل برموديز وإذن ، فقد كان لدى النجاشى أسباب تدعوه إلى الرغبة عن تعيين بطريك روماني فى بلاده ، رغم ميوله إلى الكاثوليكية .

وكان لبنادينجل عميق الإيمان ، واسع الاطلاع ، ومع هذا فإن بعثة الجزويت لم تكد تصل إلى الحبشة وعلى رأسها أوفيدو ، حتى رفض الملك تنصيبه بطريكاً كاثوليكياً ، محتجاً بأن لديه رسولا موفداً من قبل كنيسة الإسكندرية التى يتبعها ؛ على أنه أوسع صدره لرجال الدين الجزويت ، وقبل أن يقارعهم بالحجة بالحجة ، فلما أن يقتنع فيؤمن

بما يقولون ، وإما أن يقتنعوا فيكفوا عن التبشير .

ومما يذكر أن هذا الجدل قد تناول البدع المكروهة في الدين وضرورة اجتثاث جذورها من نفوس السكان ، فكان رد النجاشي أن الإمبراطور إقلاديوس وضع في ذلك الشأن بحثاً ، يعتبر دستوراً دينياً ، ويقضى بالألا يحتفل الأحباش بيوم السبت على غرار اليهود ، وإنما يحق لهم أن يقدموا القرايين لاكتساب رضى خالق السماوات ؛ وأما الختان فعادة شعبية لا فرق بينها وبين الندوب التي يتزين بها أهل النوبة ، أو خرق الأذن الذي يتجمل به أهل الهند ؛ وأما أن أكل اللحم حرام ، فذلك أمر متروك للمؤمن الذي يمتنع عن أكل الضأن أو السمك أو الخنزير ، كلٌّ حرٌّ فيما يأكل ، ولا حرج في الدين على أمثال هذه التوافه

وهكذا أسقط في أيدي الآباء الجزويت ، فكفوا عن الجدل ، على أن النجاشي سمح لرعاياه البرتغاليين بأن يمارسوا شعائر المسيحية على المذهب الكاثوليكي .

ثم خلفه على عرش الحبشة أخوه ميناس ، وكان قد وقع في أسر الأمير أحمد فأهداه كما قدمنا إلى الحاكم التركي في زبيد ، ثم فك أخوه الإمبراطور رقبته ؛ وكان من أشد المتحمسين للأرثوذكسية ، عنيفاً جباراً ، ذاق مرارة الأسر فزاد طغياناً وقسوة ؛ فلما استوى على العرش حرم على رعاياه التردد على كنائس الكاثوليك ، فحاول أوفيدو أن يثنيه عن هذا الأمر مبيناً أن في ذلك ضللاً مبيناً ، فكاد النجاشي يقضى عليه بيديه ، لولا شفاعة بعض المقربين ، فأمر بإبعاده إلى قلعة

قاصية ، وهدده بالقتل إذا ما عاد إلى مثل ذلك !
وزاد من حفيظة الإمبراطور على أوفيدو أن ثار أحد حكام الولايات
الساحلية ، بتأييد من البرتغاليين ، فظن أن لأوفيدو يداً في ذلك
العصيان . . .

وقد أرسل النجاشي حملة لتأديب الحاكم ، فما كان منه إلا أن
استنجد بسمير باشا التركي حاكم مصوع ، فنشبت الحرب بين الفريقين ؛
وفي إحدى المعارك مات النجاشي ، فخلفه ابنه سارزا دينجل (١٥٦٣ -
١٥٩٧) ، واستأنف القتال إلى أن كسر شوكة الترك وأحلافهم ،
فولى وجهه شطر الجنوب ، حيث قضى على قبائل الغالا التي تدين
بالوثنية ، وتوغل فيما وراء أراضيها إلى مدى لم يبلغه أحد من قبل . . .

ومجمل القول أن الآراء تضاربت في الحكم على أخلاق البطريك
أوفيدو ، فقائل يقول إنه كان يكيد للنجاشي ، وإنه هو الذي أشعل
نار الثورات والحروب في الحبشة ؛ وقائل آخر يزعم أنه كتب أكثر
من مرة إلى ملك البرتغال يدعوه لإرسال حملة للاستيلاء على الحبشة وطرد
الأسرة الحاكمة من أراضيها ؛ فإذا كانت هذه التهم غير ثابتة ، فإنها
جائزة ؛ على أن الآباء الجزويت لقوا شذائد كثيرة من تعصب ميناس
وحيلولته دون أداء رسالتهم التي يقصدونها ، وهي تحويل الأحباش من
الأرثوذكسية إلى الكاثوليكية . . .

وسواء أصدقت الاتهامات المنسوبة إلى أوفيدو أو كذبت ، فإن
من المؤكد أن نشاطه اقتصر ، في عهد سارزا دينجل وفي ظل تسامحه

الدينى على نشر الدعوة الكاثوليكية فى المناطق القريبة فى أكسوم .
 وكان أوفيدو فى آخر أيامه محل احترام الجميع وحبهم ، لزهده
 وعطفه على الأهلين ؛ على أنه يمكن القول إنه أخفق فى أداء رسالته
 الدينية ؛ إذ أن أقلية ضئيلة هى التى اتبعت تعاليمه ، رغم ما لقيه من
 تيسير السلطات الحاكمة وسماحتها .

رسالة بايزز التبشيرية :

حققت كلمة الموت على أعوان أوفيدو واحداً بعد واحد ، فلم يبق
 لأعضاء بعثته أثر فى البلاد .

وكان الأتراك المسيطرون على ميناء مصوع يحولون دون دخول
 بعوث التبشير المسيحية فى أرض الحبشة ، إلى أن تسلل راهب مارونى
 عربى الأصل إلى الأراضى الحبشية عام ١٥٩٥ ، ولكن أمره ما لبث
 أن افتضح ، فأخرجه الأتراك عنوة .

وفى هذه الغضون كان بالهند راهب إسباني يدعى بيتر وبايزز ،
 وكان يبذل جهد الطاقة فى سبيل الوصول إلى الحبشة ، فاتصل بمحضر
 الصدقة بأحد الخصيان المقربين من باشا سواكن ، ولما توطدت أواصر
 الصداقة بينهما ، ادعى له أن لبعض أصدقائه فى الهند أموالاً ورثوها
 فى الحبشة ، وأنه يخشى وقوعه فى أيدي الترك إذا ما حاول الدخول فى
 أرض النجاشى ، فيقع فى الأسر ويبيع عبداً رقيقاً ؛ فاحتمل الخصى
 وصحبه فى رحلته ، مدعياً أنهما ذاهبان إلى القدس ؛ ثم سأل الحاكم

التركي أن يسمح له بالمرور في طريقه بميناء مصوع ، لبعض شؤون مالية خاصة ؛ فلما منحه الباشا جواز المرور ، قدمه لصاحبه وتمنى له رحلة موفقة ؛ وهكذا نجح تدبير باييز ودخل الأراضي الحبشية آمناً سالماً . . .

وكان باييز رجلاً ذا ثقافة عالية ، بشوشاً لين العريكة ، يعرف كيف تؤكل الكتف ، ويمتاز على سلفه أوفيدو بأنه لم يكن ذا منصب رسمي ، بل كان بسيطاً جم التواضع ، فعكف على دراسة اللغة الأمهرية ، فلم تنقضى ثلاث سنوات حتى أتقنها ؛ وكان فناناً ، فدرس الهندسة المعمارية والنجارة حتى أصبح ذا باع طويل في كليهما .

وكان يتحلى بالصبر فلا يستعجل الأمور ، ولم يحاول يوماً أن يتوسل بأحد ليقدمه إلى البلاط كما كان يفعل المبشرون من قبله ، بل قبع في مدينة فريمونا ، وافتتح مدرسة لتعليم الصغار من أبناء البلاد ، فما لبث أن ذاع صيته وعلا نجمه حتى غدت مدرسته قبلة يتجه إليها أبناء النبلاء والخاصة الذين اتسعت مدراكهم ، وأصبح محصولهم من لغة (الجيز) أوسع مما كان يتباهى به رجال الدين الأقباش . . .

وقد استعان باييز في بث الدعوة بصلاة كاثوليكية ترجمها إلى لغة الجيز ولقنها تلاميذه .

وكانت الحبشة في ذلك العهد مسرحاً للدسائس التي كان يحكيها فريقان من الخاصة ، أحدهما يناصر (زا دينجل) ابن شقيق لنا دينجل الذي أوصى بأن يكون ولياً لعهدده ، والفريق الآخر يؤازر أحد أبناء

النجاشي المغضوب عليه ويدعى يعقوب .

وقد استعرت هذه الدسائس في مستهل عهد الراهب بايز بمدينة فريمونا ؛ ولم يلبث التوفيق أن حالف النجاشي زا دينجل فتولى العرش ، وبعد قليل نمي إليه خبر بايز ، فأرسل أحد أتباعه يستدعيه للمثول بين يديه .

وجاء الراهب يصحبه اثنان من خيرة تلاميذه إلى القصر ، وكان عدد من رجال الدين الأحباش في ذلك الوقت بحضرة المليك ، فتناول الحديث بعض شئون الدين ، فإذا بالتلميذين يبادلان العلماء ويدليان بالحجج الدامغة ويعارضان الآراء بأفق متسع وعلم غزير ؛ ثم يليهما بايز نفسه ، فينطلق لسانه بعظة في لغة الجيز تنساب إلى قلب الإمبراطور فتز مشاعره وتثير إعجابه ، فلا تكاد تنتهي الجلسة حتى يدعو بايز إلى جانبه ، ويكاشفه بأنه قرر أن ويعتق الكاثوليكية مذهباً ، فيرجوه بايز أن يحتفظ بعقيدته بين حنايا ضلوعه ، ولكن الحماسة كانت قد بلغت به حداً حمله على إصدار مرسوم بتحريم إقامة قداس يوم السبت ، وتغيير بعض المراسيم الدينية التي تتبعها الكنيسة الحبشية وتعارض مع المذهب الكاثوليكي ؛ كما كتب للبابا يعلن خضوعه ، وطلب إلى فيليب الثالث ملك إسبانيا والبرتغال يد ابنته لولي عهده ، وناشده أن يبعث إليه بقوة من الجند لمحاربة الكفرة والملحد . . .

ولكن هذه النزعة الإمبراطورية الحديدية لم ترق في أعين النبلاء ، فشقوا عليه عصا الطاعة ، وأقنعوا البطريك بأن يذيع رسالة على الشعب

يحلّه فيها من طاعة الإمبراطور والولاء له ؛ فما لبثت جيوش النجاشي أن اندحرت ، ومات زا دينجل في أحد المعارك .

وتولى العرش بعده سيسينوس (١٦٠٧) وكان مثله يعتمد على مؤازرة البرتغاليين ، فأضفى حمايته على بايزر واتخذته مستشاراً روحياً ، ثم ما لبث أن اعتنق الكاثوليكية ، ولكنه لم يقع في الخطأ الذي أودى بسلفه وأطاح بملكه ، فلم يبيع بالسر ، بل ظل خمس سنوات يوطد دعائم العرش ويزيل من طريقه المنافسين والمتألبين . . .

وكان أخوه الرأس سيلاس حاكماً على جوجام ، فتحول إلى الكاثوليكية على غرار أخيه ، وساعد جماعة الجزويت على بث الدعوة للمذهب الجديد في أراضي ولايته .

وبعد قليل أذاع النجاشي على الملأ أن ازدواج طبيعة المسيح حقيقة لا مرء فيها ، فسلحه البطريك ، ولكن الإمبراطور أرغمه على سحب هذا القرار . . .

واشتعلت نيران الثورة في وجه سيسينوس مرتين ؛ ولكنه أخذها وقضى على الكثير من أعدائه .

وفي ١٦٢٢ أعلن النجاشي أن دين الدولة الرسمي هو الكاثوليكية ، وشهر بالبطارقة الأقباط .

على أن بايزر مات في غضون تلك السنة ، ففقد فيه الإمبراطور رائده ومشجعه . . .

بعثة الأب منديز :

وقد كتب سيسيميوسن إلى البابا في روما يطلب إليه تعيين بطريرك كاثوليكي جديد ، فأوفد إليه الفاتيكان بعثة على رأسها الأب الجزويت الفونس منديز ، وكان إسبانيا كذلك ، إلا أنه كان على النقيض من سلفه ، متعسفاً ضيق الأفق ، متعصباً إلى حد المغالاة ، فما كاد يمثل بين يدي النجاشي حتى أمر بعقد اجتماع يشهده النبلاء والأعيان وذوو الحيشة في البلاد ؛ وفي هذا الحفل المشهود اضطرب الإمبراطور للركوع أمامه إعلاناً لخضوعه لسلطة البابا في شخص البطريرك ، وهو موقف فيه مساس كبير بهيبة الملكية . . .

وبعد ذلك شرع منديز في إدخال تعديلات على المراسيم الملكية على الوجه الذي طالما نادى به الآباء الجزويت ؛ ثم أوقف جميع رجال الدين حتى يقوم برسامتهم مرة أخرى ، كما زعم أن صيغة التعميد التي كانت تتلى من قبل تنطوي على عبارات لا تمت إلى الكاثوليكية بسبب ، وعلى ذلك يتعين تعميد الأهالي من جديد !

ثم أعلن أن عملية الختان حرام ، وأسبغ بركاته على الكنائس ، وأمر بأن يستبدل بالمذابح المقامة فيها مذابح أخرى على النهج المتبع في روما ، محتجاً بأن بعض الصور المحفورة فيها لا تمثل القديسين ، ويخشى على رؤود الكنائس من الزيف والانحراف إذا ما تطلعوا إليها .

وقصارى القول أن ذلك البطريرك لم يترك أمراً يسوء رجال الدين

والمؤمنين المحافظين إلا آتاه ؛ وشهد بذلك شاهد من أهله ، فقد ورد في تاريخ الآباء الجزويت أن حماسة منديز جاوزت حدود اللياقة ولم يراع فيها ذوق" ولا بمجاملة !

ولقد أثار شعور الاشتمزاز في نفوس الأحباش حينما أمر بنبش جثة راهب كان يسمو في نظر مواطنيه إلى مرتبة القديسين ، فأخرج جثته من الكنيسة وألقاها في الطريق بدعوى أنه لا ينتمى إلى الكاثوليكية ، وهو أمر يعتبر في نظره كفراً وإلحاداً !

وكان من أثر ذلك كله أن ثارت في وجهه مقاومات شديدة ، لم تلبث أن انقلبت إلى ثورات اشتعلت في مختلف أنحاء إثيوبيا ، ولم تكن تعبيراً عن سخط النبلاء فحسب ، بل تعبيراً عن نقمة الشعب أيضاً . . .

وقد أحمَد الإمبراطور سيسنيوس هذه الثورات واحدة تلو أخرى ، ولكن مرَّجل الغضب الشعبي لم يلبث أن انفجر على صورة حرب أهلية استعرت نيرانها في كل مكان بين أنصار النجاشي وأعدائه . . .

وإذ ذاك أخذ بعض أصحاب الإمبراطور ينصحونه بأن يعلن على الشعب خروجه على الكاثوليكية ، قبل أن يرفع الجيش راية العصيان في وجهه ، فرأى النجاشي أن يعمل بالنصيحة لتهدئة النفوس الثائرة ، وأعلن الخروج على مذهبه ، ولكن منديز صب عليه جام غضبه ، وأمعن في زجره وتأنيبه ، فلم يبق بعد ذلك في قوس الصبر مترع . . .

وفي أحد الأيام أذاع الإمبراطور نداء على الشعب جاء فيه أنه أراد

أن يعتنق رعاياه ديناً جديداً ، خال فيه الهداية والرشد ، ولكنه كان سبباً في موت الكثير من الزعماء والنبلاء وأفراد الشعب ؛ ولهذا فهو يحلهم من هذه العقيدة ، ويدعوهم إلى التمسك بدين آبائهم ، وليعد رجال الدين الأرثوذكس إلى كنائسهم ، وقيموا مذابحهم ، ويتلوا صلواتهم المألوفة ؛ ليكون ذلك برداً وسلاماً على القلوب . . .

أما وقد رد شعبه إلى الصراط المستقيم ، واعترف بخطاياها وأبرأ ذمته ، فما كان له أن يظل على العرش ؛ وهذا ما استقر عليه رأيه ، إذ تنازل عن العرش لابنه باسيليدس . . .

أما ما كان من أمر باسيليدس بعد ذلك ؛ فقد علمه رأس الذئب الطائر ، وشهد بعيني رأسه كيف تمرغت سمعة أبيه في الأحوال على أثر تغيير دينه ، واتباعه وسائل العنف في إكراه الناس على الدخول في المذهب الجديد ؛ فسار على سياسة مختلفة تماماً عن سياسة أبيه ، وآثر في الوقت نفسه التسامح إزاء الكاثوليك ، وترك الحبل لهم على الغارب دون أى ضغط على الأهالي ، على أن يكون كل إنسان حراً في إتباع المذهب الذي يروق له ؛ إلا أن النعرة الدينية كانت قد بلغت منتهاها ، ولم يكن ثمة سبيل إلى الأخذ بسياسة التسامح ، فكاشف باسيليدس منديز بأن نيته قد استقرت على اجتثاث جذور الكاثوليكية في الحبشة ؛ فعلى الآباء الجزويت أن يرحلوا عن البلاد فوراً ، وأن يتركوا كل ما في حياتهم من أسلحة وذخائر . . .

وغنى عن البيان أنه اتخذ هذا القرار الحكيم لكيلا يدع فرصة

للنبلاء الذين ظلوا متمسكين بمذهبهم الحديد أن يوقدوا نار الفتنة ،
 اعتماداً على البرتغاليين ، أو أن يستنجد الجزويت بجيش من الخارج .
 ولم يكذب حدسه ، فقد طلب بعض الآباء الجزويت إلى حاكم الهند
 البرتغالي تجريد حملة قوامها ٤٠٠ رجل لاحتلال سواكن ومصوع ،
 ثم تنقض على الأراضي الحبشية لإعلاء كلمة الدين . . .

أما منديز وأتباعه المقربون فقد لاذوا بولاية (حنا آكاي) ،
 وكان وقتذاك ثائراً على النجاشي ، فأحسن استقبالهم وأكرم وفادتهم
 في أول الأمر ، غير أنه — خشية غضب الإمبراطور وما يناله من عقابه
 إذا استبقاهم ، واعتماداً على تأكيدات رسل الإمبراطور بصدور العفو
 عنه إذا ما قام بتسليمهم — آثر السلامة وتخلص منهم بأن باعهم لحاكم
 سواكن التركي ، وباعهم هذا بعد ذلك للملك إسبانيا بربح عظيم !
 وأما من بقي من الجزويت محتبئاً في مختلف أرجاء الحبشة ، فقد
 تعقبهم النجاشي إلى أن قبض على أكثرهم ، وكان جزاؤهم الإعدام بتهمة
 الخروج على طاعة سيد البلاد . . .

ولما وصلت هذه الأنباء إلى الفاتيكان ، نسبت إدارة الدعاية هذا
 الفشل الذريع إلى استبداد الجزويت الإسبان وسوء تصرفاتهم ، فأوفدت
 ستة من رجال الدين الفرنسيين إلى الحبشة ، وحاول اثنان منهم بلوغها
 عن طريق مدغشقر ، ولكنهما وقعا في أيدي الأهالي ، فنهبا متاعهما
 وقضوا على حياتهما .

وتسلل اثنان آخران إلى داخل الحبشة عن طريق مصوع ، فما إن

اكتشفت حقيقة شخصيتهما حتى قتلا ومثل الأهلون بجثتيهما .

ولما علم الزميلان الباقيان بما وقع ، آثرا السلامة وعادا من حيث أتيا . ولكي يضع النجاشي باسيليدس حداً لهذا المجادلات ، عقد مع باشا سواكن اتفاقية تقضى بأن يقطع الباشا رأس كل من تسدّل له نفسه النزول إلى البر من رجال الدين الكاثوليك ، في نظير بعض امتيازات تجارية منحه النجاشي إياها . . .

وهكذا طويت هذه الصفحة من جهاد أصحاب المذهب الكاثوليكي لنشر دعوتهم بين سكان الحبشة !

من هذا وغيره تولد الشك في نفوس الأحباش نحو كل ما هو غريب عن ديارهم ، ولم لا وقد أكرموا وفادة هؤلاء الرهبان بادي ذي بدء ومنحوهم ثقتهم ، ودخلوا في مذهبهم زرافات ووحدانا ، وأحلّوهم من قلوبهم موضع التبجيل ، فلما قويت شوكتهم وتوطدت أقدامهم بفضل رعاية النجاشي ومؤازرته ، لم يُبقوا على تقليد ، ولم يراعوا تراثا ، وأعملوا معاول الهدم في كل مقدسات القوم ليقيموا بناء مذهبهم الجديد على الأنقاض ؛ فهل كانت هذه التصرفات إلا وسيلة للتسلط والسيطرة والبغى عن طريق الدين ؟

وكيف غاب عن هؤلاء الآباء الجزويت أن لكل شعب كرامته التي يعتز بها إلى أبعد الحدود ، فلا يرضى المساس بها ولو كان ذلك باسم الدين ؟

لو أن رجال الدين ساروا على نهج باييز ، فاقصر نشاطهم على

الناحية الثقافية، وعاملوا الأهلين بالحسنى ، لاستطاعوا أن يبلغوا من البلاد
غرضاً ، ولكنهم أثاروا الريب في نفوس الأحباش ضد الأجانب ،
فنجوا بدينهم وباء الدخلاء بالإخفاق . . .

وهكذا تأصلت كراهية الكاثوليكية في أعماق النفوس ، حتى جاء
إلى الحبشة ، بعد مرور قرن ونصف قرن ، رحالة إسكتلندي يدعى
بروس ، فكاد الأحباش يفتكون به ، لولا أنه أقنعهم بأنه ينتمى إلى كنيسة
بعيدة عن البابا بعد السماء عن الأرض ؛ فنجوا بهذه الدعوى من فتك
الأحباش !

الحبشة إبان القرن السابع عشر

أورد الآباء الجزويت كثيراً من البيانات عن حالة الحبشة في ذلك العهد ، وكان من أوسعهم اطلاعاً وأدناهم إلى الحيدة في أحكامه ، أب برتغالي يدعى بلتازار تيليز ، قام بعد قرار إبعاد الجزويت والتنكيل بمن بقي منهم في البلاد ، بوضع كتاب وصف فيه دولة الأحباش ؛ وتبدو خيبة الأمل واضحة بوجه عام لمن ينعم النظر في ثنايا سطور هذا الكتاب ؛ إذ يزعم أن ظهور الكاهن يوحنا وانتشار عدله ، وذبوع ورعه الشديد واستمساكه بأهداب المسيحية ، ما هي إلا خرافات لا تستند إلى واقع ، كما يتهم سلفه الفاريز بالتضليل ورواية الأساطير كما ألقاها الأحباش ، فليست الحبشة في نظر المؤلف إلا بلداً فقيراً ، وليس أهلها إلا نفراً من المتخلفين عن ركب الحضارة .

ولكن تيليز حين يقرر ذلك يتناسى تلك الحقبة التي انقضت منذ رحيل الآباء الجزويت عن الأراضي الحبشية على أثر الفتن الدينية التي كادت تودى بالأسرة الملكية الحاكمة ، كما سبق أن قدمنا ، كما تناسى أن البلاد تعرضت خلال هذا القرن لغزوات الأمير أحمد تارة وقبائل الغالا الوثنية تارة أخرى ، فأصبحت الدولة في ذلك العهد بنكسة شديدة ، وتبددت أموالها ، وتقوضت أمجادها ، وانهار صرح الاستقرار

وضاعت هيبة الملكية والحكومة فيها . . .

ونحن نورد فيما يلي جانباً مما جاء في كتاب تيليز عن الحبشة ، يقارن فيه بين عظمة الرومان وبذخهم وثرائهم ، وبين تواضع ملوك الأحباش وتقشفهم وفقرهم ، فيقول في وصف ولية أقيمت بقصر النجاشي ، إنه قد مد سباطان ، أحدهما صغير لصاحب الجلالة ، والآخر أكبر منه بقليل للآباء اليسوعيين ؛ ولم يكن فوق هذا أو ذاك غطاء من الدمقس ، ولا أطباق من الذهب ؛ ولما حان موعد العشاء أسدل رجال الحاشية ستاراً بين المائدتين ، على حسب التقاليد المرعية في الحبشة التي تقضى بالآي يرى أحد جلالة الإمبراطور وهو يتناول الطعام ، فيما عدا الخدم الذين يقدمون الصحاف بين يديه . ولقد توفر على خدمة الآباء اليسوعيين فرقة من النساء ، ترتدى كل واحدة منهن ثوباً فضفاضاً من نسيج القطن الرخيص ، ويحيط بخصرها حزام عريض ينحدر الثوب من تحته في ثنيات تبدي مفاتن الجسد الأسمر ، وعلى يدها سلة من القش تحتوى على أنواع غريبة من الفطائر المحشوة باللحم أو برقائق من فواكه الأناناس والتفاح والكمثرى .

ثم تقبل طائفة أخرى من النساء يحملن أوعية من الفخار الأسود تحوى ألواناً من الحساء فيه قطع كبيرة من اللحم المسلوق ، وتغطي هذه الأوعية أغطية من الخوص هرمية الشكل . . .

وعلى هذا تقتصر الفخامة الإتيوبية التي طالما أسهب في وصفها المؤلفون الأوائل ، فليس هناك ملعقة ، أو شوكة ، أو سكين ؛ كما لم

يكن على المائدة ملح أو توابل أو مشبهات من أى نوع . . .

ويتحدث تيليز في فصل آخر من كتابه عن أراضي الحبشة وحدودها ، فيرسم لنا صورة جلية عن سلطة الإمبراطور في مختلف الولايات ، إذ يقول ان اثنتين من هذه الولايات تؤديان الجزية السنوية للنجاشي ذهباً ، وهما ولايتا جوجام وإيناريا ، وكثيراً ما كانت جزيرة إيناريا تضيع على سيد البلاد ، إذ كان يقنصها رجال قبائل الغالا في أثناء الطريق !

أما بقية الولايات فكانت تؤدى ما عليها حبوباً أو خيولاً ؛ وكان بعضها يعنى من تقديم الخيول لحاجة السكان إليها في الدفاع عن أنفسهم واتقاء شر المغيرين على أراضيهم ، فيستعاض عنها بالبقر ، فتقدم للإمبراطور بقرة عن كل عشر بقرات يملكها السكان كل ثلاث سنوات ، كما تقدم قطعة من نسيج القطن طولها خمسة أمتار عن كل نول .

وكان للحكومة المركزية في بعض الأصقاع مكاتب لحماية الأموال ، ولكن معظمها كان يدخل في جيوب الأمراء سادة تلك المناطق . . .

ويقول تيليز إن النظام الذى كان متبعاً من قبل بإسناد السلطة التنفيذية إلى اثنين من ذوى الخطوة المقربين إلى النجاشي لم يبق معمولاً به في القرن السابع عشر ، إذ استبدل بهما رئيس وزراء يجمع بين سلطات القائد الأعلى ونائب الملك ، ويطلق عليه اسم (الرأس) .

ويصف تيليز حفلة تنويج الإمبراطور فيقول إن الركب الملكي يقصد إلى كتدرائية أكسوم ، تتقدمه كتائب الجيش ورجال البلاط وعيون البلاد وسادتها ، فإذا ما اقترب من الكتدرائية اعترض طريقه سرب

من العذارى النبيلات يسألنه : من عساك تكون ؟ فيرد الإمبراطور قائلاً :
 لأننى ملك إسرائيل ، من سبط يهوذا ! فيقلن : إنك لست بملك البلاد !
 فيرد النجاشى بأنه ملك صهيون ، وحامى الأراضى المقدسة ! وهنا تفسح
 الفتيات له الطريق ، وترتفع الهتافات تشق عنان السماء وتدوى طلقات
 الأعيرة النارية ، وتدق الطبول ؛ ثم يتقدم « أبونا المطران » يخف به
 الكهنة ، فيستقبلون النجاشى عند مدخل الكاتدرائية ، ويحيطون به إلى
 أن يصل إلى المذبح ، ثم يضع المطران على رأسه تاجاً يقول تيليز إنه
 شبيه بقبعة عريضة من الخمل الأزرق ، تحليه زهور الزنبق وقطع من
 الأحجار الزائفة . ولا يحمل النجاشى فى هذا الحفل سيفاً ولا صولجاناً ،
 وإنما يخفى رأسه حينما يقام القداس ويسبغ عليه المطران بركات
 الكنيسة .

زمن العزلة :

صب الآباء اليسوعيون جام غضبهم على رأس باسيليدس ، فاتهموه
 بأنه قتل إخوته الأربعة والعشرين ، وحجد دين آبائه ، وكان من
 المسلمين !

وبضيف هؤلاء الآباء أن عهده شهد غزوات قبائل الغالا ، واجتاح
 الجراد أراضى المملكة ؛ ولكن التاريخ لا يحمله وزر هذه الغزوات ،
 ولا إصابة أراضيه بتلك الآفة ، حتى لو كان هؤلاء الآباء من الصادقين ؛
 فليس فى صفحات التاريخ المتوارث ما يدل على اشتداد غزوات الغالا

أو تفاقم هجوم الجراد في عهده على ما سبق من عهود .
كما لم يثبت أن باسيليدس أشهر إسلامه ، وإذا كان قد تقرب من
الملوك المسلمين وخطب ودهم فإنه لم يفعل ذلك إلا خشية غدر الأوربيين به
واتقاء غزوهم لأراضيه .

وليس ثمة دليل على أنه قتل إخوته ، وإنما جرى على سنة آباءه
فبعث بهم إلى حصن في ذروة الجبل كيلا يحكيوا له الدسائس ويكيدوا
للعرش .

نعم إنه كان ملكاً مستبدّاً ، قوى الشكيمة ، ولكن كان لا بد
للحبشة من ملك مثله يعيد الأمن إلى نصابه ويصلح ما جلبته الحروب
الأهلية على البلاد من ويلات وشرور ، وما أنزلته باقتصادياتها من
مصائب في عهد سلفه سيسنيوس ، وقد حاله التوفيق ، فشن خلال
حكمه الذي امتد ثلاثة وثلاثين عاماً عدة حروب ، ووطد أركان ملكه ،
ونشر ألوية السلام في ربوع بلاده ، فأقام في غوندار على مقربة
من بحيرة تسانا عاصمة جديدة للمملكة ، وظلت قائمة حتى منتصف
القرن التاسع عشر ، بيد أنه لم يهمل أكسوم ، عاصمته السابقة ، بل
أعاد بناء كتدرايتها التي كانت قد تداعت وأصابها البلى إبان الحروب
التي شنها على الحبشة الأمير أحمد .

وقد خلفه ابنه يوحنا ، الذي امتاز عهده بالسلم والرخاء ؛ واستأنف
المبشرون فيه جهودهم لنشر تعاليم الكاثوليكية بين سكان البلاد ، ولكنهم
لم يفلحوا ، إذ كان النجاشي على غرار أبيه عدواً لدوداً لهم ، فجمع

كتب الآباء اليسوعيين وأمر بإحراقها . على أنه لم يكن أكثر تسامحاً
لإزاء المسلمين ، فأمر بتخصيص حى لهم فى العاصمة يلزمونه ويعيشون
فيه بمعزل عن بقية السكان .

ثم تولى العرش من بعده ابنه يسوع ، فحكم الحبشة ٢٤ عاماً
(١٦٨٠ - ١٧٠٤) ، ويبدو أنه يستأهل لقب (الأكبر) الذى أضيف
لأسمه ، فقد كان محارباً عظيماً ، دون أن يكون نزاعاً إلى إراقة الدماء .
وتروى التواريخ الشعبية عنه أنه قام بإصلاح الإدارة الحكومية ، فقطع
دابرجابة الضرائب الجشعين ، ووجَّه التعريفة الجمركية فى مختلف
حدود بلاده ؛ وفعل ما لم يفعله ملك من قبله ، فقام بزيارة إخوته وأبناء
عمومته الأمراء فى المنفى ، وتفقد أحوالهم ، وتعرف على مقدار ما يعود على
كل منهم من إيراد يسلب الحراس جانباً كبيراً منه ؛ كما استمع لشكاواهم ،
وأعد لهم جميع وسائل الراحة والرفاهية فى منقاهم ؛ واستعاد سلطان التاج
على الكنيسة بعد أن تلاشى أو كاد بسبب تدين أبيه وخضوعه لسلطان
القساوسة ، فأعلن بصراحة أن للنجاشى وحده مطلق الحرية فى عقد
المجمع الكنسى أينما أراد ومتى أراد ؛ وأخيراً عمل على تخفيف موجة
اضطهاد الأوربيين التى طغت على البلاد إبان حكم أبيه وحده .

هذا ، وقد بذلت محاولتان فى سبيل استئناف العلاقات الدبلوماسية
مع فرنسا ، ولكنهما باءتا بالفشل ولم تأتيا بالثمرة المرجوة ، ومع هذا فإن
إحداهما جديرة بالرواية . . .

فقد أُلح الآباء اليسوعيون على لويس الرابع عشر أن يوفد إلى بلاط

النجاشى بعثة تدعوه لإرسال سفارة إلى بلاط (الملك الشمس) ويصحبها عدد من شباب النبلاء والنبيلات الأحباش لتلقيهم الأصول المرعية في بلاط الملك .

فكان أن تلقى مسيو ماييه قنصل فرنسا بالقاهرة تعليمات من مليكه بالبحث عن رسول لائق يسافر إلى الحبشة ويرسم للسفارة طريق السفر إلى فرنسا ويذلّل جميع العقبات التى تعترض أعضاء هذه السفارة ، كما يوفر للسادة النبلاء والسيدات النبيلات وسائل الراحة حتى يصلوا إلى العاصمة الفرنسية .

وقد اتفق وقتذاك أن النجاشى يسوع كان يعانى التهاباً في غشاء البطن ، فأوفد إلى القاهرة رسولاً يسعى وراء طبيب لعلاج الإمبراطور ، فانتهر القنصل ماييه الفرصة وفتح صيدلياً من رعايا بلاده يدعى بونسيه في أمر السفر إلى غوندار ، وقدمه بعد ذلك إلى « الحاج على » رسول الإمبراطور على أنه خبير نطاسى يعالج الأمراض الباطنية ، ومن بينها التهاب غشاء البطن !

وزوّد القنصل الطبيب بونسيه بأوراق اعتماد تتضمن الأهداف الأخرى التى تسعى إليها البعثة الفرنسية ، ومنها إيفاد سفارة حبشية إلى بلاط الملك لويس الرابع عشر .

واصطحب بونسيه في رحلته أحد الآباء اليسوعيين بوصفه تابعاً له ، وسار الركب إلى الأراضى الحبشية ، فبلغها عن طريق سنار ، ثم تولى الطبيب علاج الإمبراطور فكان التوفيق حليفه ؛ ولكن النجاشى عندما

سمع باقتراح إرساله سفارة إلى فرنسا لم يأخذه على محمل الجلد ، إذ بدت له صعوبة اختراق أعضاء السفارة للأراضي العثمانية ، لاحتمال وقوعهم وهم النبلاء والنبيلات أسارى فى أيدي الأتراك ، فيتخذون منهم عبيداً وجوارى !

ثم كيف تأتية بعثة من قبل ملك عظيم يقال إن الشمس لا تغرب عن ملكه ، ولا تحمل إليه الهدايا الفاخرة التى لا يستغنى عنها فى العلاقات الدبلوماسية مع الملوك الشرقيين !

أجل ، لقد فرح الإمبراطور بشفاء علته ، ولا بأس من مكافأة أخيه ملك فرنسا على تلك اليد البيضاء ، فليجزل العطاء لرسله ، وليحملهم إلى مليكهم أفخر الهدايا ؛ أما إيفاد النبلاء والنبيلات إليه فأمر لا يسوغ أن يحول بخاطر إنسان عاقل !

على أنه أوفد رسولا من لدنه يدعى مراد ، يدين بالإسلام ، وله إلمام باللغة الفرنسية ؛ وكل معلوماته عن الدبلوماسية مستقاة من اتصاله بأحد التجار الأوربيين فى حلب ؛ فحمله النجاشى رسالة شكر لصاحب الجلالة ملك فرنسا على المنة التى أسداها إليه ، كما زوده ببعض الهدايا والعبيد ، وفيل صغير أسود ؛ ولما وصلت البعثة إلى القاهرة ، أراد القنصل الفرنسى بدافع من الفضول الاطلاع على خطاب الاعتماد الذى يحمله بونسيه ، فأبى بونسيه أن يتم ذلك إلا فى حضرة المليك ؛ فحقق عليه القنصل ، وطلب إلى الوالى العثمانى مصادرة أوراق الاعتماد ؛ فاحتج الآباء اليسوعيون على هذا الافتيات على الأصول الدبلوماسية المرعية ،

وخشى الباب العالى أن يؤدي هذا الحادث إلى قطع العلاقات الدبلوماسية بين فرنسا والقسطنطينية ، فأودت حكومة القسطنطينية لجنة للتحقيق ، استعرضت الوقائع ، ثم أصدرت حكمها بأن يتحمل القنصل ماييه نفقات البعثة العثمانية ، تطبيقاً للقوانين التركية التى تقضى بأن يكون الغرم على الجانب المدان ، فاشتد سخط القنصل على بونسيه ؛ وألى على نفسه أن يثير الشكوك من حوله حتى ينال من سمعته ، فرماه بالشعوذة والاحتيال ، واتهمه بأنه لم يزر الحبشة ولم تطأها قدماه !

غير أن بونسيه لم يأبه لهذه الاتهامات الرخيصة ، بل استأنف رحلته فى صحبة مراد ، حتى بلغ قصر فرساي ، فثل السفير الفرنسى بين يدى مليكه ، وقدم الرسول المسلم إليه بوصفه سفيراً للملك المملوك . . .

ثم رفع تقريراً عما شاهدت عيناه وسمعت أذناه فى الحبشة ؛ إلا أن نقمة ماييه ، القنصل الفرنسى بالقاهرة ، كانت قد سبقته إلى البلاط ، فما لبث العلماء الفرنسيون أن شنوا حملة طاغية على التقرير وصاحبه قائلين إنه رواية من نسج الخيال ، مؤيدين قولهم بأن اسم مراد ليس من الأسماء الحبشية ؛ ولا عجب فالرجل مسلم ، وهو إلى ذلك أرمنى الأصل . . .

وقالوا أيضاً إن غوندار عاصمة مزعومة لا وجود لها ، لأنها لم يأت لها ذكر فى كتب الآباء اليسوعيين ؛ وفاتهم أن جد النجاشي اتخذها عاصمة للملكه بعد طرد اليسوعيين بنحو عشرين سنة !

وكان قد جاء فى تقرير بونسيه أن بالحبشة عدة مدائن كبيرة ، فى حين كان الشائع على ألسنة الآباء اليسوعيين ، أن المدينة الوحيدة فى

الحبشة هي أكسوم ، وأن سكانها يعيشون في الخيام !
 وجملته القول أن بونسيه أصبح موضع السخرية ، فلم يلبث طويلا
 حتى عاد إلى القاهرة يندب حظه العاثر ومآل مشروعه الخاسر . . .
 هذا ما كان من أمر البعثة الأولى التي أوفدت إلى الحبشة وانتهت
 بالفشل الذريع ؛ ولكن الحكومة الفرنسية لم تقنع بهذه النتيجة ، بل
 أوعزت إلى قنصلها بالقاهرة أن يتولى قيادة بعثة أخرى إلى مملكة النجاشي ،
 وما كان ماويه ليرضى بأن يستبدل بنعيم القاهرة وعشاء السفر إلى بلاد
 مجهولة ، فاعتذر بأن صحته لا تحتمل القيام بتلك المهمة ، وأشار على
 بارييس أن تتدب مكانه مسيو دى رول ، نائبه بدمياط ، فما لبث
 دى رول أن تسلم تفويض حكومته وأوراق اعتماده بوصفه سفيراً لبلاده
 لدى إمبراطور الحبشة . . .

على أنه بالرغم من إقباله على مهمته وارتياحه لها ، كان يجهل كل
 شيء عن تلك البلاد وعادات سكانها وتقاليدهم ؛ وكان في الوقت نفسه ،
 على غرار مواطنيه ، يكنّ الازدراء لكل غريب عن بلاده ، فلم يكن
 لذلك بالشخص الذى يحسن إيفاده إلى الأمراء الأفريقيين .

وما كاد دى رول يبدأ رحلته حتى أخذت الغيرة تدب في النفوس ،
 فما كان رهبان الفرنسيسكان ليقرأوا عيناً بافتيات ممثلى اليسوعيين على
 حقوقهم المكتسبة في الأراضي الحبشية ، وما كان المسلمون والأقباط
 ليرضوا باستئناف العلاقات بين ملك فرنسا وإمبراطور الحبشة ، فلاعجب
 أن يروح دى رول ضحية لهذه العوامل الهدامة التي أحاطت به ، وأن

تقام في وجهه العقبات ، فلا ينتقل من مكان إلى آخر إلا إذا دفع مالا ، ولا يحل ببلد إلا تعقبته السلطات بطلب إبراز أوراق اعتماده وتحقيق شخصيته ، مع ما يصاحب هذه الإجراءات من إساءة وعسف . . .

وأخيراً وبعد طول عناء، بلغت البعثة بلدة سنار، فقبل أعضاؤها بحفاوة بالغة ، ودعى دى رول إلى قصر النجاشي ، حيث كان جلالته في انتظار ضيفه الكريم تحف به هالة من قريناته .

وكان أول خطأ ارتكبه السفير أن دعا سيدات البلاط لمشاهدة عجيبة العجائب التي أحضرها بين هداياه ، وما كانت إلا مجموعة من المرايا المضحكة التي يقف أمامها رواد مدينة الملاهي ممسوخين مشوهي الخلق ، قصاراً كالأقزام أو طوالاً كالعمالق !

وامتدت أيدي زوجات النجاشي إلى المرايا ، فلا تكاد إحداهن تطالع صورتها حتى تصرخ رعباً وتلقى بالمرآة على الأرض ثم تفر هاربة وهي تولول وتخفقها العبرات !

وارتفعت صيحات النساء تستنزل اللعنة على رأس « الساحر الأجنبي » وتطالب بتعذيبه وقتله !

وكانت هذه خاتمته ؛ إذ أحاط به رجال الحرس وجروه إلى عرض الطريق حيث قتلوه ومثلوا بجثته أبشع تمثيل ، ولم ينج من المذبحة أحد من أعوانه ؛ وكان رهبان الفرنسيسكان قد غادروا المدينة أثناء زيارة دى رول ورجال بعثته ، وبذلك لم يكن له من بينهم منقذ ولا معين !

وفي تلك السنة مات النجاشي يسوع ، وخلفه ابنه تكلا حايمانوت ، فلم يبق على العرش طويلا ، إذ تأمر عليه بعض النبلاء وقتلوه ؛ وجاء بعده عمه تاوفيلوس ، فشهّر سلاح الانتقام في وجه جماعة النبلاء الذين قتلوا ابن أخيه غدرًا ؛ وكان تاوفيلوس فظًا غليظ القلب ، فأشعل بغلظته مراجل الغضب في القلوب ، وأخذت بوادئ الثورة تبدو في الأفق ، ولم تلبث أن اشتعلت حين وفاة الإمبراطور سنة ١٧٠٠ ، وأطاح النبلاء بملك الأسرة السليمانية التي حكمت البلاد منذ عام ١٢٧٠ ، ونادوا بالرأس جوستوس ، حاكم مقاطعة تيجرى ، إمبراطورًا على الحبشة . . .

ولكن النبلاء ما لبثوا أن ناصبوا إمبراطورهم العداء وراحوا يسيكون له الدسائس ، على حين كان في نظر الشعب غاصبًا ، فلما أقعده المرض سرت إشاعة في الجيش بأن النبلاء يزعمون تنصيب ابنه مكانه على العرش ، فاشتعلت نيران الثورة ، ونادى الجيش بدادود ابن النجاشي يسوع ملكًا ، فدخل مدينة غوندار في موكب حافل ، وعاد الملك إلى الأسرة السليمانية بين تهليل الشعب وتكبيره .

وكان أول تدبير اتخذه النجاشي الجديد لإرضاء لشعبه ، أن أمر بإعدام رجال الدين الكاثوليك الذين أكرم سلفه جوستوس وفادتهم ومنحهم حرية التبشير بمذهبهم .

وضاق بالأعيب رؤساء الأديار الذين كانوا يثيرون النفوس على العرش والكنيسة ، فاستباح دماءهم وسلط عليهم كتائب جيشه التي تضم جنوداً

من قبائل الغالا الوثنية ، فعبثوا بالأديار وذبحوا الرهبان فلم يبقوا منهم على أحد !

ومات النجاشي بعد أن حكم خمس سنوات ، فبايع الجيش أخاه أسما جورجى بن يسوع الأكبر ، الذى أطلق عليه فيما بعد لقب الجبار ، إذ آلى على نفسه أن يكسر شوكة النبلاء ويقضى على نفوذهم ، فجرد عليهم حملة قاسية أطاحت بسلطانهم وشردت أسرهم ، وجعل أزمة السلطة فى الولايات بأيدي رجاله المخلصين .

وعلى الرغم من صرامته وشدة معاملته لخصومه — ولعلمهما السبب فى مقارنته بأمير المؤمنين هرون الرشيد فى الأقاليم الشعبية الحبشية — كان كثيراً ما يلجأ للحيلة فى الكشف عن أعدائه وخصومه ، فبدعى الموت ، حتى إذا عرف الغادر والخائن والمتربص من أعدائه ، خرج من مخبئه وانقض عليهم فأعمل فى رقابهم السيوف !

وكان يخرج فى الليل متنكراً لتفقد أحوال رعاياه ومعرفة ما يقال عنه وما يشاع حوله ، والكشف عن منافسيه ؛ ويقال إنه فى إحدى هذه الجولات الليلية تعرف على الفتاة التى شاطرته الملك ، وحملت التاج معه وحدها ، دون حليمة أخرى أو خليمة ، على غير ما كان يفعله آباؤه وأجداده الأباطرة .

ويقال فى تفصيل ذلك إن وطأة الحمى اشتدت عليه ذات ليلة فى إحدى القرى القريبة من بلدة سنار ، فأواه سيد القرية وأحاطه برعايته ، وظلت ابنته (برهان منجازا) إلى جانب فراشه طوال الليل تقوم على خدمته

فلما طلع عليه النهار كشف لرب البيت عن شخصيته وطلب إليه يد ابنته ،
فرفت إليه في غوندار بعد قليل .

وتروى الأساطير عنه أنه شاهد في إحدى جولاته الليلية شاباً في مقتبل
العمر يغسل ثوبه في مياه مستنقع ، فاقرب منه ، وكان الحر شديداً ،
وطلب إليه أن يغسل عباءته هو أيضاً ، فلم يبد الفتى تذمراً ، بل أقبل
على غسلها راضياً قريير العين ؛ وفي هذه الأثناء أخذ النجاشي يناقشه في
شئون الدولة ، ويعيب بعض تصرفات الملك ، فما كان من الفتى إلا أن
ألقى إليه بعباءته قائلاً له إنه كان يغسل رداء رجل يظن أنه عابر سبيل
مسكين ، ليكون له ثواب الخير ، فإذا بهذا الرجل يعيب على ابن الكنيسة
الإمبراطور أعمالاً أتاها ولا لوم عليه في إتيانها ، ومثل هذا الرجل لا
يستأهل خيراً ولا يستحق أن تسدى إليه يد !

فما لبث النجاشي أن كشف له عن شخصيته واصطحبه إلى غوندار
حيث أسند إليه مهام منصب كبير في الدولة ، فكان هذا الفتى من أعظم
أعوان المليك من بعد وأقربهم إلى قلبه .

ويروى أيضاً أنه قابل شيخاً في إحدى الليالي يستنخر الرمل ويتكهن
بالمصائر ، فسأله عما ينجي القدر لسيد البلاد ؛ فقال الشيخ : سيرزق
النجاشي ولداً ، ولكن هناك شخصاً يدعى (وليتا جورجى) لا يجرى في
عروقه الدم الملكى ، سيحكم الحبشة ثلاثين عاماً بعد موت
الإمبراطور !

فعاد النجاشي إلى عاصمة ملكه كاسف البال حزيناً ، ثم أمر بقتل

كل من يحمل هذا الاسم الشائع من بين رعاياه ؛ ثم من الله عليه بـغلام ، فأفضى بسر النبوة إلى زوجته ، فإذا بها تضحك في وجهه وتقول له إن اسمها عند تعميدها هو وليتا جورجى ، أى (ابنة جورجى) ، وهى كما قال الرمال تعيش في كنفه في القصر الإمبراطورى ، وليس من المستبعد أن تحكم الحبشة باسم ابنها الطفل ، إذ ما قدر لأبيه ، بعد عمر طويل ، أن يموت ، ولم يكذب الشيخ عند ما قال إن الدم الملكى لا يجرى في عروقها ! وما يجدر ذكره أن الملكة الأم هى نفسها التى قصت هذه النبوة على بروس (الرحالة الإسكتلندى) بعد أربعين عاماً من وفاة زوجها النجاشى آسما جورجى .

كيف تداعت الملكية :

وتحققت نبوة العراف ، فمات النجاشى عام ١٧٢٩ بعد أن حكم عشر سنوات ، ولم تجد الملكة عناء في المناداة بطفلها ملكاً على الحبشة باسم يسوع الثانى ، فشهدت البلاد طوال عهده الذى امتد حتى عام ١٧٥٣ تقلص نفوذ الأسرة السلليمانية الحاكمة وأقول نجمها ؛ فقد أثارت الملكة الأم حفيظة النبلاء ، إذ أسلمت زمام السلطة لنفر من أقاربها قلدتهم أرفع المناصب ؛ هذا إلى خور طبيعتها وضعف شكيמתها في كبح جماح الثائرين وإزالة سخط النبلاء ، واضطرارها أخيراً لقبول الحلول الوسطى مع جماعة الأرستقراطيين ، مما أدى إلى استرداد نفوذهم الذى كان قد تلاشى في عهد قرينها أو كاد .

ولما بلغ يسوع الثانى مبلغ الرجال ، ظهر أنه لم يرث عن أبيه الصلابة والدهاء والحرص على الاستئثار بالحكم ، بل كان ناعماً ليناً ، يقضى معظم أوقاته فى الصيد والقنص ، ويهوى الفنون الجميلة ، ويقتنى التحف النادرة ويدفع فيها غالى الثمن ؛ وتجمع حوله نفر من اليونانيين الذين كانوا قد لجأوا إلى الأراضى الحبشية إثر اضطهاد الأتراك لهم ، فاستعان بهم فى إعادة بناء القصر الإمبراطورى على ربوة عالية ، وتزيين جدرانها بالصور والزخارف . وقد زار المؤرخ الإسكتلندى بروس قصر النجاشى ، وأبدى إعجابه بهندسته وأبهائه الواسعة التى جلب الإمبراطور الماريا من فينسيا لتزيين جدرانها ، كما جلب لوحات من إيطاليا تحمل أسماء كبار الفنانين . . .

وكان يسوع يقضى الساعات الطوال فى قصره الحديد غير عابئ بمهام الدولة ، فجلب على نفسه نقمة رعاياه وازدراء رجال الجيش الذين أطلقوا عليه لقب « الصغير » على سبيل التندر ، على تقيض جده الذى أطلق عليه من قبل عن جدارة لقب يسوع الأكبر .

وكان الناس يرمونه بالتخنث ، وينظمون فى وصفه الأزجال المليئة بالسخرية ، فما كان منه إلا أن جرد حملة لتأديب العصاة فى ولاية سنار ، ولكنه هزم هزيمة منكرة وأبىد جيشه عن بكرة أبيه ، ففر هارباً إلى عاصمة ملكه !

وكان المطران قد مات فى هذه الأثناء ، وخزائن الدولة خاوية ، نتيجة لتزوات الإمبراطور وترفه ، فاضطر لفرض ضريبة على الكنائس تجبى من روادها ، لسد نفقات رحلة المطران الحديد من القاهرة إلى الأراضى الحبشية !

وقد لاقت البعثة التي أوفدها النجاشي إلى مصر مصاعب جمّة ، وبلغت نفقاتها أرقاماً خيالية ؛ إذ اغتال نائب مصوع أموال البعثة التي كانت مخصصة للسلطات المصرية ، واضطر أعضاء البعثة للنزول في ميناء جدة ، ففرض الشريف عليهم قدراً كبيراً من المال ؛ وكانت ثلاثة الأثافي اعتقال المطران الجديد في مصوع ، فأقام فيها فترة حتى احتال يوناني من رجال النجاشي على تيسير فراره !

ولم يكن نائب مصوع ليجرؤ على سجن المطران لولا تشجيع سيده الرأس ميخائيل سوهول ، صاحب ولاية تيجري ، الذي كان مسيطراً على المنطقة الساحلية ، يعجى المكوس ويستولى على ما يحلو له من واردات الحبشة ، لاسيما الأسلحة والذخائر التي كان يزود بها جيشه ، حتى أصبح لا يشق له غبار ولا يستطيع جيش النجاشي مواجهته . . .

وكانت الملكة الأم ، كما قدمنا ، تحقد على طبقة النبلاء ، فعقدت لابنها النجاشي على فتاة من قبائل الغالا التي تنتمي إليها الإمبراطورة نفسها ، فلما مات زوجها عام ١٧٥٣ ، تسلمت مقاليد السلطة من الملكة الأم ، وحكمت البلاد باسم ابنها جواس ، وأسندت أسمى المناصب إلى أبناء عشيرتها من قبائل الغالا ، وعينت أخويها حاكمين على ولايتي أمهرا وجوجام ، فما لبث الشعب أن ثار عليهما ، فقتل أحدهما وفر الآخر ؛ ورأى النجاشي أن لا حيلة له إلا بالالتجاء إلى سوهول ، حاكم المناطق الساحلية ، ذي القوة والبأس ، فعينه نائباً عنه على أراضى المملكة بأسرها ! وساق سوهول جيوشه على أعداء الإمبراطور فنكل بهم ، وبذلك

أشعل نار الضغينة في قلوب الأهالي على النجاشي جواس ، ثم ما لبث أن نادى بتكلا حايما نوت لإمبراطوراً على الحبشة ، في الوقت الذي وصل فيه المؤرخ الإسكتلندي بروس إلى قلب العاصمة . . .

وقد رسم بروس صورة قائمة للإمبراطورية في ذلك العهد ، فذكر أنها كانت مقطعة الأوصال ، منهوكة القوة ، بتر المغيرون أطرافها من كل جانب ، وانقض عليها أعداؤها يلغون في دماءها وينهشون لحمها ؛ وانقطعت سبل المواصلات بين أجزائها الموالية للإمبراطور والمعادية له ، واستقل بعض الحكام والرؤوس بولاياتهم فلم يعد أحد منهم يؤدي الجزية ، وضاع الحق وكلمة الدين وسط الحروب الأهلية التي أنهكت قوى الإمبراطورية وتركتها مضعضة عليلة .

وفي ذلك العهد لم يكن للحبشة أعداء يخشى بأسهم سوى الغالا ، أما من عداهم من مسلمي الصومال ، الذين كانوا في وقت من الأوقات ذوي حول وطول ، فقد زال خطرهم باضمحلال الدولة العثمانية التي لم يعد احتلالها مصوع إلا مظهراً شكلياً وصورة زائفة ، إذ نزل الأتراك عن الحكم لزعم قبائل البيديجا التي تضرب بالقرب من الميناء ، وصدر فرمان بتعيينه نائباً في نظير جزية سنوية للباب العالي ، أما جنود الحامية الأتراك فقد زالت عنهم صفة الجنودية منذ ارتبطوا إلى أهالي المنطقة بالمصاهرة ؛ وقد تهكم عليهم بروس عندما وصف ثيابهم المهلهلة التي لا تكاد تستر العورة ، وهم يزهون مع هذا بمجدهم السالف حينما كان يطلق عليهم اسم الأنكشارية ! وما كان أيسر على الأحباش أن يطيحوا بهذه الزمرة من أشباه

المحاربين ، لولا رغبة حكام مقاطعة تيجرى فى الإبقاء عليهم ليتخذوا منهم ستاراً يتوارون وراءه كلما وقعت أحداث يخشى إلقاء تبعها عليهم أو يكون لهم ضلع فيها . . .

أما فيما عدا هذا فقد ظلت حالة البلاد على ما كانت عليه من قبل : سلطان الكنيسة واسع ، ولا يكاد المسافر ينطلق من بلد إلى آخر حتى يطالعه دير أو كنيسة ، والمطران محوط بنفر ممن يسعون إلى مناصب الكنيسة ، والكاثوليك مغضوب عليهم .

وعلى الرغم من تداعى سلطة التاج ، فقد كان النجاشى محوطاً بهالة من المظاهر الملكية ، يخرج من القصر على صهوة جواد ، أو ممتطياً بغلا ، فإذا ما ذهب إلى الكنيسة سار مترجلاً ، وإذا جلس فى ساحة القضاء أسدلت على وجهه غلالة سميكة ولزم الصمت وتكلم بدلا منه ضابط من الحرس يطلقون عليه اسم (صوت النجاشى) . وكانت ساحة القصر الملكى تعج بالوافدين إليها من المتقاضين وأصحاب الشكاوى قبيل الظهر ، فترفع الأصوات بعبارة « اقض بيننا يا صاحب الأمر فينا ! »

ويقول بروس إن معظم المحامين كانوا من الأفاقين الذين يرتادون المجالس ويروون القصص الشعبية ويستغلون غفلة العامة !

فإذا ما انعقد مجلس الدولة جلس الإمبراطور فى صندوق خشبي كبير يلاحظ خلال فتحاته وثغراته هيئة القضاء التى تجلس إلى مائدة مستديرة ، ويدلى كل منهم برأيه فى القضية على حسب أهمية مركزه بالترتيب التصاعدي ، فإذا ما تعددت الآراء كان الرأى الأخير للنجاشى

يحمله (صوته) إلى الهيئة .

وكانت الأحكام صارمة قاسية ، كما كان من المألوف أن تبتر ذراع المجرم أو ساقه أو تفقأ عينه ، فإذا أدين شخص بتهمة الخيانة قضى عليه بالأعدام ، ولا تجوز مواراة جثته الثرى ، بل يلقى بها في عرض الطريق ! وكثيراً ما كان يحدث في أثناء الثورات أن يتعثر الإنسان في الطريق بأشلاء متناثرة من جثث المحكوم عليهم بالخيانة ، والضباع تنهشها في الليل ، والغربان تحوم حولها في وضح النهار !

أما سلاح الجيش في ذلك العصر فكان قاصراً على السيوف والرمح ، كما كان الحال في القرون الوسطى ، ولم يكن مزوداً بالأسلحة النارية إلا جنود كتبية واحدة من الحرس الإمبراطوري النظامي .

وكان للنجاشي حرس خاص يتألف من بعض العبيد وجماعات من المرتزقة الغرباء ؛ وكان للحكام الأقاليم في أغلب الأحيان جيوش مجهزة بأسلحة أحدث مما كان يستخدم في جيوش الإمبراطور !

فإذا أمر صاحب الجلالة بالتعبئة العامة ، أذاع على الرؤوس وحكام الولايات ثلاثة بيانات ، يوصى في أولها بشراء البغال وتجهيز الخدمة وإعداد الزاد والمؤن ؛ ويأمر في الثاني بإزالة الأشواك والعقبات من جميع الطرق لأن النجاشي لا يعرف إلى أين يقود جيوشه ؛ ثم يصدر البيان الأخير بأن الإمبراطور يعسكر في مكان كذا ، ومن لم يوافه إليه استحق غضب الملك وكان حسابه عسيراً !

صراع بين كبار الزعماء

١٧٧٠ - ١٨٧٠

عاش الرحالة بروس في ظل رعاية الرأس ميخائيل عامين ، شهدت فيهما البلاد صراعاً دموياً وثورات متعاقبة أقضت مضاجع الناس ، فترك الكثير منهم ديارهم بعد أن فقدوا أموالهم ومتاعهم ؛ ولم يطق بروس العيش أكثر من ذلك في الحبشة ففر منها ، سالكاً الطرق الوعرة حيناً وضارباً في تيه الصحارى أحياناً ، حتى وصل إلى سنار ، ومنها إلى لندن ، حيث أذاع على الملأ ما شهد في الحبشة وما سمع من رواة الأخبار عن تاريخها ؛ ولكن بعض الناس ظنوا أن رواياته من نسج الخيال فلم يعيروها التفاتاً ولم يعولوا عليها لغرابتها وبعدها عما كان يرويهِ الآباء اليسوعيون وابتدعه خيالهم الخصب عن أبهة الملك وعظمة القصر الإمبراطوري .

فلما دب اليأس في قلبه انزوى وأثر العزلة في إحدى قرى إسكتلندة ، حيث وضع مذكراته وترجم ما ترجم من المخطوطات الحبشية التي أحضرها معه والتي صارت فيما بعد من المراجع التاريخية الجدية المعتمدة . ولنعد الآن إلى تلك الفترة العصيبة التي مرت بالبلاد ودامت زهاء قرن من الزمان :

كان الرؤوس والحكام يناصرون هذا النجاشي أو ذاك ، فيضعون

التاج على رأسه ثم لا يلبثون أن يخلعوه ، وفق أهوائهم وتبعاً لما لهم من نفوذ .
 وغدت هذه التغييرات مألوفة ، فكان في الحبشة عام ١٨٠٠ ستة من
 الأباطرة على قيد الحياة ؛ فلا عجب إذا استبدت الحيرة بهنرى سولت ،
 أحد أعضاء البعثة الإنجليزية التي عهد إليها الملك الإنجليزي جورج الثالث
 كشف البحر الأحمر ، حينما نزل إلى الأرض الحبشية فلم يتعرف على
 مليكها الذي يجب أن يقدم إليه هدايا ملكية وأوراق اعتماده ؛ فلما رأى
 الطريق إلى غوندار غير مأمون ، قدم الهدايا وأوراق اعتماده إلى حاكم
 ولاية تيجرى !

وكان المطالبون بالعرش في مستهل القرن التاسع عشر أربعة كباراً :
 سيد مقاطعة تيجرى الواقعة في شمال الحبشة الغربي ، وسيد ولاية
 أمهرا الذي كان يضمن حمايته على الإمبراطور ، وحاكم ولاية جوجام
 بجنوب بحيرة تسانا ، ثم سيد مقاطعة شوا الواقعة شرقي البحيرة .

وفي عام ١٨٥٠ لم يبق من هؤلاء الأقطاب سوى اثنين ، بعد أن مات
 الآخران في أثناء الحروب الأهلية ، وبذا أصبح التنافس بين الاثنين
 الباقيين دون غيرهما ؛ ولكن الناس في تقدير والله في تدبير ، فقد طرأ على
 الموقف منافس جديد من الأشراف المغمورين ، فحلبت أن انتزع السلطة
 من أيديهما معاً وحكم البلاد باسم تيودور !

وظلت الحروب الأهلية مستعرة في سائر أنحاء البلاد ، إلا أن سلطان
 النجاشي الجديد كان يزداد اتساعاً على مدى الأيام ، فبسط نفوذه على
 مقاطعتي غوندار وجوجام ، ولم يبق له منافسون ذوو بأس سوى رأس

مقاطعة تيجرى ، وحاكم ولاية شوا ؛ وكان كلاهما طامعاً فى العرش ،
يبنى إزاحة الآخر عن طريقه ، إلى أن ظهر الرأس كاسا (تيودور) ،
واستمال إليه المطران ، وعاهده على طرد جميع المبشرين الكاثوليك من
الأراضي الحبشية ، فقام بتتويجه وأذاع على الناس أنه ظل الله على الأرض !
ولما استتب له الأمر ، نقل العاصمة من غوندار إلى مجدالا ،
الواقعة على المنحدر الشرقى من الهضبة الحبشية ، وقام بتحصينها ،
وأعاد بناء الكنائس التى كانت قد تهدمت خلال الحروب الأهلية .

وكان النجاشى تيودور يضع نصب عينيه ثلاثة أهداف آلى على
نفسه أن يبلغها مهما كلفه الأمر حتى يوطد أركان ملكه : كسر شوكة
النبلاء ، وإكراه قبائل الغالا على اعتناق المسيحية ، ثم إبعاد المسلمين
الذين يابون الارتداد عن دينهم إلى خارج البلاد . . .

وما كانت هذه الأهداف بعسيرة البلوغ على شخص مثل تيودور ،
خلق ليكون زعيماً مسموع الكلمة ، قوى البأس ، شديد التعصب لدينه ؛
فما زال بأعدائه حتى أفناهم أو اتخذهم أسرى ، ودان له الرؤوس وحكام
الأقاليم النائية ، وبلغ أوج سلطانه خلال عام ١٨٦٠ ، فتملكه الغرور ،
وأرخى العنان لغرائزه الشريرة ، فراح يعاقر بنت الحان ليلا ونهاراً ، واتخذ
لنفسه عشيقة من الغالا ، ما كان ليتورع عن عرض مباذله معها جهاراً ؛
ثم تسلط عليه الوهم ، يصور له أنه محوط بأعداء يحيكون له الدسائس
ويعملون على اغتياله ، فيبطش بهم دون ذنب جنوه ، ويحرق الناس
بالآلاف أحياء !

ولم تكن أنباء هذه المبادل والمذابح تصل إلى أوروبا إلا بعد حين ، مشوهة مبتورة ، حرارتها وتفقده عناصر إثباتها ، وتتلشى آثارها في خضم الأحداث المالية . . .

من أجل ذلك كانت الحكومة البريطانية على جهل بالأمور عند ما أوفدت الكابتن كامرون عام ١٨٦٢ إلى البلاط الإمبراطوري ، ليخطب ود النجاشي ويقدم إليه وساماً رفيعاً من الملكة فكتوريا .

فلما حظى الرسول بالمثل بين يدي النجاشي ، حمله تحياته إلى ملكة الإنجليز ، وكاشفه بأن سياسته تستهدف القضاء على الأتراك والمصريين ، واقترح على صاحبة الجلالة في كتابه إليها أن يوفد سفارة حبشية إلى عاصمة ملكها . . .

وكان إهمال وزارة الخارجية البريطانية الرد على الكتاب الإمبراطوري ، هو السبب الرئيسي في فشل الحملة التي جردها الإنجليز على ماجدالا ؛ فعند ما وصلت أنباء نزولها على البر عام ١٨٦٤ ، طلب تيودور أن يأتيه برد ملكة الإنجليز على كتابه ، فلما قيل له إن جلالته لم تحمل قائد الحملة هذا الرد ، ثارت كرامته واعتبر هذا الإهمال اهانة موجهة إلى شخصه ، فصب جام غضبه على رأس الكابتن كامرون وصحبه ، وأمر بسجنهم في قلعة ماجدالا !

فجرت لندن حملة انتقامية على النجاشي تحت قيادة سير روبرت نابيير ، فنزلت إلى البر جنوبي مصوع على مسيرة ٥٢٠ كيلو متر من قلعة ماجدالا ، بيت القصيد ؛ وقد لاقى الإنجليز أهوالاً لا حصر لها

فى هذه المناطق الجبلية الوعرة ، إذ كانوا يتسلقون ذرا الجبال الشاهقة ،
 فتعرض طريقهم الأخاديد العميقة التى يحرس أعاليها نفر من جنود
 النجاشى لا يتجاوز عددهم فى أغلب الأحيان أصابع اليدين . . .
 وأخيراً تقابل الجيشان ، وكان الإنجليز يعسكرون فى واد ضيق ،
 والأحباش يسيطرون على قمة الجبل وسفحه الذى ينحدر إلى الوادى ؛
 وظن تيودور أنه بالغ من أعدائه ما يريد ، وإذا بنيران المدفعية الإنجليزية
 تحصد رجاله كسنابل القمح ، فيتساقطون بالمئات حول جواده ، ولما رأى
 الإمبراطور اندحار جيشه وتخلف الرؤوس الأحباش عن نجدته ، أطلق
 على نفسه رصاصة أودت بحياته ، فدخل الإنجليز ماجدلاً صبيحة يوم
 عيد الفصح عام ١٨٦٨ .

وكان هم سير روبرت إطلاق سراح الإنجليز المعتقلين ، فوجد معهم
 الإمبراطور يوحنا الثالث ، وكان قد قضى فى السجن عشرين عاماً ، فاستنجد
 بالقائد الإنجليزي ليعيد إليه عرشه المغتصب ، ولكن نابيير أعرض عنه
 ولم يعره التفاتاً ، فما كان له وقد أنجز مهمته المحدودة أن يقحم نفسه
 فيما لا يعنيه من شئون البلاد ، فحمل من غنائم القصر ما خف حمله
 وغلا ثمنه ، وعاد على رأس جيشه إلى شاطئ الصومال ، بعد أن قضت
 الحملة فى الحبشة نيماً واثنى عشر شهراً . . .

النجاشي يواجه الدول الأجنبية

١٨٧٠ - ١٩١٦

انتهى الصراع بين الرؤوس وحكام الولايات بارتقاء الرأس تيجرى
عرش الحبشة باسم يوحنا الرابع عام ١٨٧٢ .
وكان على غرار سلفه تيودور ، بطلا مغواراً لا يشق له غبار في ساحة
الوغي ، ويتحلى بفضائله دون مبادله ، غير أنه لم يجد فرصة إيجابية واحدة
ليضع مواهبه في خدمة بلاده ، فقد كان أكثر الوافدين عليه من الأجانب
في ذلك العهد من ذوى المآرب السياسية : يجلبون له الآلات والمعدات
والأسلحة الحديثة من بارمنجهام وليبزج وليل وبروكسل ، ليتخذوها وسيلة
لعرض مشروعات معاهدات سياسية أو اتفاقيات تجارية مع حكومات
بلادهم ؛ فظل طوال عهده على حذروتر بص من هؤلاء الأجانب الطامعين
في خيرات بلاده البكر !

وكانت مصر أول الدول التي ناصبته العداء وشهرت الحسام في وجهه ،
فقد كان إسماعيل خديو مصر في ذلك الوقت على عكس سلفه سعيد :
شديد الطموح واسع المطامع ، فأوغز إلى الباب العالي أن يتنازل له عن
سيادته السورية على شاطئ البحر الأحمر ، في مقابل مبلغ من المال ؛
ثم أرسل حملة إلى تلك الأصقاع فاحتلت بربره وهرر ، وبذلك حاصر

أملاك النجاشي يوحنا الرابع من الشرق والجنوب ، ثم قرر أن يتجه صوب الشمال ، فانطلق الجيش المصرى إلى المناطق الجبلية حيث اعترضه الأحباش الذين يمتازون بمعرفة دروب الجبال ومسالكها والقتال فيها ، فتغلبوا على المصريين (١٨٧٥ و ١٨٧٦) دون أن تحسم الأمور بين الفريقين فى معركة فاصلة .

وظلت الجبهة المصرية هادئة خلال ست سنوات ، حتى نشبت الثورة العربية عام ١٨٨٢ واحتل الإنجليز مصر ، ثم اشتعلت ثورة المهدي ، فاستولى الدراويش على السودان من الخرطوم حتى حدوده الجنوبية ؛ غير أن هؤلاء الجيران الجدد لم يكونوا ليثيروا قلق يوحنا الرابع ، بل لعله رأى فى وجودهم على تخوم مملكته مزية لا يستهان بها ، إذ نصح الإنجليز للحكومة المصرية بعد مصرع غوردون فى الخرطوم ، بالعدول عن مشروعاتها فى جنوب البحر الأحمر ؛ فانسحب المصريون من مدينة هرر والمنطقة الساحلية ؛ فزال بذلك العقبات التى كانت تحول دون توسع الحبشة .

على أن بوادر خطر آخر كانت قد ظهرت فى الأفق ، فقد شقت قناة السويس عام ١٨٦٨ ؛ فأصبح البحر الأحمر طريقاً ملاحياً دولياً له خطره وأهميته ، بعد أن كان بحيرة مغلقة ؛ كما اشتد الصراع الاستعماري بين الدول الأوروبية التى لم تترك مكاناً خالياً فى أفريقيا إلا عملت كل ما تستطيع لتوطيد أقدامها فيه .

فكانت النتيجة أن وجد يوحنا الرابع بلاده محصورة بين أسوار مثلث من المستعمرات الأفريقية : الإنجليزية والفرنسية والإيطالية ؛

وكل دولة منها تسعى بكل ما تملك من قوة وحيلة للقضاء على استقلال الحبشة التي كانت في اعتبار الاستعمار الأوربي يومئذ شوكة في الجنب ؛ ولكن عبء الدفاع عن هذا الاستقلال لم يقع على عاتق يوحنا ؛ بل على كاهل خلفه منليك الذي كان قد فر من المنفى في عهد تيودور ونادى بنفسه أميراً على مقاطعة شوا ، ثم ظل بعد ذلك بمنأى عن الحروب الأهلية التي اشتبك فيها بقية الأمراء وانتهت بارتقاء يوحنا الرابع عشر الحبشة . . .

وقد اصطفى منليك مستشاراً فرنسياً له ، فنصحه بأن ينتهز فرصة صراع الأمراء حول العرش ليوسع رقعة إمارته ويضم إليها أراضي الغالا الغنية الواقعة على تخوم المقاطعة جنوباً وغرباً .

وكان هناك جماعة من الأفاقين الفرنسيين ، فأخذوا يشترون الأسلحة القديمة من الأسواق الأوربية وبييعونها للأمير بأضعاف أثمانها . . .

ولم يقنع منليك بالغارات أو الحملات التأديبية ؛ بل كان غزوه لتوسيع رقعة ملكه ، وكلما دانت له مدينة أقام فيها حامية من جنده يبيعون الرقاب بالمال ويفرضون الجزية .

ولما ترامت أنباء هذه الغزوات إلى يوحنا الرابع ، رأى أن يتفق مع منليك اتقاء لشره ، فعقد معه اتفاقية حددت فيها أملاك الطرفين في عام ١٨٨٢ ، وزوج ابنه البالغ من العمر اثني عشر عاماً بابنة منليك (الأميرة زاوديتو) التي لم تكن قد بلغت السابعة بعد ، كما نصت الاتفاقية على أن يخلف منليك يوحنا الرابع على عرش الحبشة !

وكان الإيطاليون آخر من جلس في مأدبة الاستعمار في أفريقيا

الشرقية ، فاشترت إحدى الشركات الإيطالية ميناء عصب الصغير فوق بوغاز باب المندب ثم باعته الحكومة روما ، وأوفدت الحكومة الإيطالية إلى منليك بعثة لعقد اتفاقية تجارية ، بغية الحصول على مساعدة الأمير في دعم حركة التبادل التجاري في هذه المناطق .

وفي ١٨٨٤ احتل الإنجليز ، لمدة قصيرة ، المنطقة الساحلية المسماة بإريتريا حالياً ، وكانت الحاميات المصرية معسكرة في هذه المنطقة منذ عهد الثورة المهدية ، فلما تم لهم إجلاء المصريين عنها ، غادروا البلاد وأوعزوا إلى الإيطاليين أن يعملوا على توسيع رقعة أملاكهم في المنطقة الساحلية واحتلال ميناء مصوع ؛ وكان المهديون قد تنازلوا عن هذه المنطقة نفسها للإمبراطور يوحنا الرابع !

فلما نزل الإيطاليون إلى البر في ١٨٨٥ أدرك النجاشي أن وراء الأكمة ما وراءها ، وأن ذلك التبادل التجاري المزعوم لم يكن إلا قناعاً زائفاً يخفي وراءه مشروعات استعمارية خبيثة ، تهدف إلى التغلغل في صميم الأراضي الحبشية بدعوى حماية طرق القوافل .

وحدث في ذلك الحين أن قبض أحد الرؤوس في ولاية الشمال على أعضاء بعثة علمية إيطالية كانت قد تسلمت عبر الحدود في ولايته ؛ فأرسلت الحكومة الإيطالية فرقة مؤلفة من ٥٠٠ جندي لإنقاذ أعضاء البعثة ، ولكن الأحباش كانوا لهم بالمرصاد ، فاشتبكت قوات الطرفين في معركة دوجالي (٢٦ يناير ١٨٨٧) التي أبيد فيها الإيطاليون عن بكرة أبيهم ! ولما وصلت أنباء هذه الهزيمة إلى روما ، أصيبت الحكومة بذهول ،

ثم بادرت بإرسال حملة عسكرية إلى مصوع للتأثر ، وحاول الإنجليز أن يحولوا دون القتال فلم يفلحوا ، إذ كانت القوات الإيطالية قد تجاوزت حدود الحبشة وتوغلت في أراضيها . . .

وكان الرأي — فيما يبدو — قد استقر على تدبير جديد يهدف إلى التفاهم مع منليك واستعدائه على الإمبراطور يوحنا ؛ فأوفدت القيادة الإيطالية إليه بعثة تخطب وده وتطلب منه العون ، في نظير مده بالمال وتزويده بالأسلحة والمناداة به إمبراطوراً على الحبشة ، على أن ينزل للإيطاليين عن ميناء أسمرة ، وعن شريط من هضبة تيجرى يرفع من قيمة المستعمرة الإيطالية الفقيرة ، فقبل منليك المال والأسلحة والذخائر ، ولكنه لم يحرك ساكناً ولم يشهر سيفاً في وجه مواطنه الذي كان سيخلفه على عرش الحبشة عاجلاً أو آجلاً . . .

وقد حققت الأيام آماله عند ما اشتبك الأحباش بالمهديين في معركة كادت الدائرة فيها تدور على رجال المهدي ، لولا رصاصة أصابت مقتلاً من يوحنا ، فذب الذعر في صفوف رجاله وفروا هاربين ، وانقلبت هزيمة المهديين نصراً . . .

وقد أفاد منليك من حالة الفوضى التي شاعت في البلاد على أثر هذه الهزيمة ؛ كما قنع المهدي بما كتب له من نصر ، مكثفياً من الغنيمة بوقوع جثة يوحنا في يده ، فبادر بإرسال سيفه إلى أم درمان إعلاناً للفوز في المعركة . . .

وفي أثناء ذلك أقام الإيطاليون عدداً من المخافر الأمامية في أعالي

البلاد ، وساعدوا منليك على المناداة بنفسه ملكاً للملوك ؛ وعندئذ لم يبق لمنليك عدو أو منافس يخشى بأسه ؛ ولما كان ينتمى إلى إحدى بنات النجاشي داود الذى حكم فيما بين ١٥٠٨ و ١٨٤٠ فقد اعتبر من سلالة الأسرة السلمانية الملكية ، وخلا له الجوفصار صاحب الكلمة المسموعة ، مؤيداً بقوة رجاله وجيش حليفه رأس مقاطعة شوا .

وما لبث الإيطاليون أن عقدوا مع النجاشي معاهدة أوشياى التى تهيئ لإيطاليا أن تكون صاحبة السلطة ، وأن تبسط على الحبشة حماية واقعية ؛ فقد نصت إحدى مواد هذه المعاهدة على « أن يلجأ النجاشي لوساطة الحكومة الإيطالية فى كل مفاوضات تجرى بين حكومة بلاده وحكومات الدول الأجنبية » !

ولم يمض على توقيع هذه المعاهدة شهر حتى أوفد منليك ابن أخته الرأس ماكونن حاكم هرر إلى روما ، حيث عقد مع الحكومة الإيطالية اتفاقية تقضى بأن تقرض إيطاليا النجاشي أربعة ملايين من الفرنكات (حوالى ١٦٠ ألف جنيه) ، بضمان المكوس التى تجبها جمارك هرر ، وفى حالة التوقف عن سداد الدين ، تصبح هرر ملكاً لإيطاليا !

وأرسل همبرت ملك إيطاليا إلى النجاشي هدية تتألف من ٢٨ مدفعاً و ٣٨ ألف بندقية (وهى الأسلحة التى استخدمها فيما بعد وأدت إلى مذبحه عدوة التاريخية) .

وفى اليوم التالى أذاعت إيطاليا على العالم أجمع أن الحبشة أصبحت تحت حمايتها !

وفى ١٨٩٠ ، تحرك منليك على رأس جيشه لقمع ثورة قام بها الرأس مانجاشا ، حاكم مقاطعة تيجرى ، ولما تم له النصر وتوطدت قدماءه ، أوفد رسلا إلى بعض البلاد الأوربية لجس نبض حكوماتها توطئة لعقد اتفاقيات معها ، فاستجابت له فرنسا وروسيا ، وأوفدتا مندوبين عنهما إلى الحبشة لإجراء المفاوضات ، فاحتجت إيطاليا احتجاجاً شديداً ، وبادرت بإيفاد الكونت أنتونلى إلى النجاشى لإبلاغه أن هذا التصرف من جانبه يعتبر خرقاً لمعاهدة أوشياى ؛ فكان رد الإمبراطور : إن نص المعاهدة باللغة الأمهرية هو الوحيد الذى له الحجية ، ويقضى بأن يكون « للإمبراطور الحق فى استخدام وساطة إيطاليا . . . إلخ » ، لا كما يرمي النص الإيطالى الذى يوجب هذه الوساطة .

وسكت الإيطاليون على مضض ، بيد أن نشاطهم ازداد خلال السنوات الثلاث التالية ، واتضح للنجاشى نياتهم السيئة ورغبتهم فى مناوئته والكيد له وتوسيع رقعة إريتريا على حساب أراضيه ، فاستشاط غضباً وقرر أن يقضى على هذا العبث بحد السيف ، فلما شعر الإيطاليون بذلك ، عملوا على إرضاء النجاشى ، فأرسلوا له هدية من الذخيرة مقدارها مليونان من القذائف ، وكان ذلك غاية أمانى الإمبراطور ، فلما لبث أن قام بوفاء هذا الدين فأعلن فسخ معاهدة أوشياى !

وقد بسطنا فيما سبق ، الظروف التى لا بست النزاع الإيطالى الحبشى فى كتاب (زعماء العصابات الاستعمارية) ، فتكتفى هنا بالإشارة إلى أن حاكم مقاطعة أريتريا (بارايتيرى) أساء تقدير قوة النجاشى ، كما كان

يعتمد في تدبيره على ثورة الحكام والرؤوس على مليكهم في حالة اشتباك القوات الإيطالية مع جيش النجاشي ؛ ولكن منليك كان أبعد نظراً وأوسع حيلة من خصمه ، فأذاع على زعماء العشائر وحكام الولايات منشوراً دورياً فضح فيه الأعياب الاستعمار الأجنبي ومشروعاته الخبيثة ؛ فأثار هذه المنشور موجة من الوطنية أشعلت النفوس حمية وحماسة ، فالتفت القلوب حول منليك ، ووقفت جيوش الأمراء على أهبة الاستعداد لمعاونته حين تحين الساعة الموعودة . . .

وفي ٢٢ فبراير ١٨٩٦ تسلم بارايتيرى برقية من كريسي رئيس الوزراء يطالبه فيها بنصر حاسم على جيوش « البرابرة » ، فقرر القائد الإيطالي أن يهاجم عدوه (عاصمة ولاية تيجرى) على غرة ، واختار لذلك يوم عيد ديني (أول مارس) ظاناً أن جميع أفراد الجيش سيهرعون في ذلك اليوم إلى المدينة المقدسة (أكسوم) ، وأن ما لديه من عتاد عصري كفيل بالقضاء على قوات النجاشي ، على نحو ما حدث في عهد سير روبرت نابيير الإنجليزي . . .

وبزغ فجر ٢٩ فبراير وقوات بارايتيرى ، وتتألف من ١٤٥٠٠ مقاتل ، تهاجم عدوة من ثلاث جهات ، وتربط فرقة منها فوق ربوة عالية تطل على واد سميق ، وتحيط ثلاثها بالتلال التي تقع عليها مدينة عدوة . وقد خيل للقائد العام أنه مسيطر على الموقف تماماً ، حين فوجئ بحجم من النار تتساقط على جناحه الأيمن ولا يدرى من أين تأتيه ، وإذا برجال النجاشي يتسلقون سفح الربوة من جميع نواحيها ، فتناثرت طلقات

بنادقهم تحصد الأرواح ، فدب الذعر في صفوف الإيطاليين وانحدروا نحو الأخاديد الضيقة التي يملك الأحباش نواصيها ، فانهالت عليهم القذائف النارية وتكدست الجثث بعضها فوق بعض ، ولم يسلم من المجزرة الهائلة سوى فلول خيالة من الإيطاليين !

وتصل أنباء الهزيمة المنكرة إلى روما ، فيشتد السخط على كريسبي ، وتعالى الصحف في تقدير قوة منليك العظيم ومدى فوزه على البيض ، وتنخفض الجباه ذلاً وعاراً . . .

ولسنا نجد في وصف تلك الحالة الأليمة في إيطاليا ، أروع مما كتب جبريل دافونزويو شاعر إيطاليا وأحد الناجين من معركة عدوة ، في رسالة بعث بها إلى جندي سيق فيما بعد إلى جحيم أفريقيا ، يقول له فيها : « عليك يا بني أن تمحو العار الذي لحق بمواطنيك على أيدي الأحباش ، فما زال أثر الكى في جسدي ، وسيبقى حتى مماتي ! »

واضطرت إيطاليا لتوقيع معاهدة الصلح المهينة في أكتوبر ١٨٩٦ وفيها تعترف بفسخ معاهدة أوشيالي وسيادة الحبشة الكاملة على أراضيها ، واستقلالها التام . . .

وأعاد النجاشي ١٨٦٥ أسيراً إيطالياً ، جعل الأحباش أكثرهم خصياناً ، جرياً على تقاليدهم ، على الرغم من نواهي منليك ! هذا ما كان من أمر الأسرى الإيطاليين ، أما الأسرى من سكان المستعمرة الذين كانوا يحاربون في صفوف الإيطاليين ، فقد اعتبروا خونة ، وأمر الإمبراطور ببتز أذرعهم اليمنى وسيقانهم اليسرى !

وعلى الرغم من ذلك نص في ملحق معاهدة الصلح على أن المفوضين الإيطاليين يعترفون بأن الأسرى لا قوا على يد إمبراطور إثيوبيا رعاية تامة ومعاملة إنسانية كريمة ، كما أنفق عليهم من ماله الخاص ، ويترك جلالة الإمبراطور لحكومة روما حرية تقدير النفقات التي تحملها جلالته ، وتعويضه عما بذل من تضحيات في سبيل هؤلاء الأسرى !

وكانت ثمرة النصر أن ظهرت الحبشة على خريطة العالم دولة ذات كيان وبأس ، وهذا منطق القوة الذي لا يعترف الأوروبيون بغيره ؛ فاضطرت الدول الأوروبية إلى إيفاد مبعوثيها المفوضين إلى أديس أبابا (ومعناها : الزهرة الحديدية) التي بناها منليك عام ١٨٨٣

للإمبراطورة ، فصارت عاصمة للإمبراطورية الحبشية منذ ذلك العهد .

وكان الفرنسيون أول من هرعوا إلى العاصمة ، فقصده إليها حاكم الصومال الفرنسي ، وأعقبه الأمير هنري أورليان حاملا إلى الإمبراطور هدية رائعة من رئيس الجمهورية الفرنسية ، ثم توالى حضور رجال الأعمال من شتى الأجناس ، وقامت حرب دبلوماسية شعواء بين مبعوثي بريطانيا وفرنسا وإيطاليا ، كل يبغى بسط نفوذه والاستئثار بخطوة النجاشي ، وكان للفرنسيين أوفر حظ من ذلك ، إذ فازت إحدى شركاتهم بامتياز الخط الحديدي بين جيبوتي وهرر ، ولم تلبث الشركة أن تنازلت للحكومة الفرنسية عن حقوقها ، فأثار هذا غضب الإمبراطور وحمله على إهمال المشروع لكيلا يدع مجالا لتدخل إحدى الحكومات الأجنبية في شئون بلاده الداخلية . . .

وبعد أربع سنوات تم الاتفاق (عام ١٩٠٦) على أن تتولى فرنسا إنشاء الخط بين جيبوتي وهرر ، على أن يخول البريطانيون والطلبان الحق في إنشاء خطوط فرعية تمتد من هذا الخط الرئيسى شمالا وجنوباً إلى مستعمراتهم ، وهى مشروعات ظلت حبراً على ورق ولم تخرج قط إلى حيز التنفيذ ؛ على أن الخط الرئيسى نفسه قد صادفته عقبات فنية ومالية وسياسية فلم يصل إلى أديس أبابا إلا فى غضون عام ١٩١٨ .

وكانت بريطانيا الدولة الثانية التى أولت الحبشة بالغ الاهتمام ، بعد هزيمة الإيطاليين فى عدوة ، فأوفدت بعثة برياسة رينيل رود ، حملت إلى النجاشى هدايا ثمينة حظيت بتقديره ونالت إعجابه ، على عكس شعور الرأس ماكونن الذى كان يحذر الإنجليز ويقول عنهم إنهم كالقط : إذا داعبته استكان وبقي على ألفته ، فإذا أبعدته أنشب أظفاره فى يدك ! وقد نجحت مداعبة القط ، فظفرت البعثة الإنجليزية باتفاقية حسمت مشاكل الصومال الإنجليزى ورسمت الحدود بينه وبين الحبشة .

وفى عام ١٩٠٢ نجح الإنجليز فى الحصول على حقوق فى مياه النيل الأزرق الذى يحمل مياه الأمطار الحبشية الغزيرة ، والطمى الذى يحى تربة مصر والسودان ، حيث يزرع القطن الذى يغذى مصانع لانكشير ؛ وقد تعهد الأحباش ألا يقدموا على عمل من شأنه تحويل مجرى النيل الأزرق ، فى أى جزء من أجزائه ، إلى أن يلتقى بنهر النيل ، وبقيت الحالة على ذلك فلم يخطر ببال أحد أن يقيم على بحيرة تسانا خزاناً لضبط مياه الفيضان قبل الحرب العالمية الأولى .

ثم جاء الروس ومبعوثو السلطان العثماني إلى بلاط النجاشي في أعقاب الإنجليز ، كما عاد الطليان يعرضون عليه مشروعات عمرانية لإنماء موارد الحبشة . وحتى الدراويش أوفدوا إليه رسولا ، فأصبحت أديس أبابا قبلة الأنظار ، يحج إليها الأجانب من كل حذب وصوب ، على أن منليك لم يكن يركن إليهم أو يثق في مشورتهم ، بل كان يكرم وفادتهم ويلزم في الوقت نفسه جانب الحذر منهم ، فإذا منح امتيازاً لبعض الأجانب حرص على أن تكون نصوصه فضفاضة لتحتمل جميع التأويل ، وإذا استشعر عبثاً أو التواء في القصد قبض يده ونكث بوعدده . . .

وكثيراً ما كان يؤجر الأراضي الواسعة ويقبض الإيجار سلفاً ، ثم لا يتورع عن تأجير الأراضي نفسها لشركة أخرى ، وحجته في ذلك أن رجال القبائل يتفاهمون فيما بينهم على حقوق كل منهم في المرعى ، فلم لا يتفاهم الأوروبيون ؟ وهكذا كانت عقود الامتيازات الممنوحة لا تساوى قصاصات الورق التي كتبت عليها ، فيما عدا النذر اليسير منها ، كامتياز الخط الحديدي الفرنسي ، وامتياز بنك الحبشة الذي ظفر به البنك الأهلي المصري في سنة ١٩٠٥ ولم يزل مزدهراً واسع النشاط حتى اليوم .

على أن منليك كان يزداد جشعاً كلما تقدمت به السن ، وكان يفرض الضرائب الباهظة على المتاجر ، ويلج في مرور البضائع عبر بلاده حتى يتقاضى عليها العوائد ، هذا إلى دأبه على توسيع رقعة ملكه ،

فامتدت ممتلكاته إلى منطقة بنى شنجل التي تطل على حوض النيل الأبيض غرباً ، وخضع له أمراء (كافا) العصاة ، وبالاختصار : امتدت حدود الحبشة إلى بحيرة رودلف ، وجرى حملات تأديبية على سكان الصومال الذين كانوا تحت قيادة الزعيم محمد عبد الله الشهير بالمجنوب .

وكان قواده يعودون مظفرين من غزواتهم ، حاملين إليه مصورات جغرافية عن مناطق مجهولة تحيط بمملكته ، فيضع عليها خاتمه ويعتبرها ضمن أملاكه ، ثم يأخذ في مساومة الدول للاعتراف بحقوقه عليها ، كلما وجد فرصة سانحة للمساومة ، وماذا يضر بعض الدول إذا اعترفت للنجاشي بملكية بلاد لا تربطها بها رابطة وليس لها فيها مصلحة ، مادام هذا الاعتراف يهيئ لها فرصة للظفر ببعض الامتيازات في بلاد النجاشي ؟

وعلى كل حال ، فقد سجلت الحرائط الحديثة تلك الأراضي المجهولة ضمن أملاك الحبشة ، فأصبحت حدودها واضحة المعالم لإلّا من ناحية الصومال الإيطالي ، وكان هذا هو السبب الذي أدى إلى الاضطرابات التي وقعت في منطقة (وال وال) وتولدت عنها شرارة الحرب الإيطالية الحبشية في أواخر ١٩٣٤ .

وقد قلنا فيما سبق إن منليك قد صار بعد دعوى الحماية الإيطالية على الحبشة ، شديد الحذر من الأجانب ، لا يقبل أى مساس بحقوق السيادة أو باستقلال بلاده ، ولكن هذه الصلابة بدا عليها الوهن عندما

اشتدت عليه وطأة الشلل الذى أصابه عام ١٩٠٦ وأقعده عن العمل والتفكير بعد عامين . . .

فى مستهل مرضه ، مات ماكونن رأس مقاطعة هرر ، ومانجاشا رأس تيجرى ، وكان لكل منهما أولوية ارتقاء عرش الحبشة بعد منليك ، وكان نفوذ ألمانيا وقتئذ يزداد فى أديس أبابا ، فقلقت الدول الأوربية صاحبة المستعمرات المحيطة بالأراضى الحبشية ، وتناوضت بريطانيا وفرنسا وإيطاليا ، على غير علم من النجاشى ، وانتهت مفاوضاتهما باتفاقية تقضى باعتراف هذه الدول باستقلال الحبشة ، إلا إذا حدثت منافسات طارئة أو تغيرت الأحوال داخلياً ، فإن لكل دولة من هذه الدول - فى هذه الحالة - الحق فى اتخاذ التدابير الكفيلة بصون مصالح رعاياها ، على ألا تنفرد دولة من الدول الثلاث بالأمر إلا بعد مشاوره الدولتين الآخرين ؛ كما تناولت الاتفاقية تحديد مناطق النفوذ فى الحبشة لكل دولة من الدول الثلاث ورسمت لها حدوداً دقيقة !

ولما نعى إلى النجاشى خبر هذا الاتفاق استشاط غضباً ، ولكن المرض كان قد سلبه الحزم والجرأة ، فخضع للأمر الواقع ، وكتب إلى حكومات لندن وباريس وروما يشكرها على إبلاغه أمر الاتفاق الذى عقد بينها ، واعترفها باستقلال بلاده وسيادتها !

وعلى الرغم من مرضه الشديد احتفظ بمقاليد الحكم ثمانية عشر شهراً بعد هذه الاتفاقية ، إلا أنه فى خريف ١٩٠٧ عين حكومة تعاونه على تصريف شئون البلاد ، وفى الصيف التالى دعا جميع الرؤوس لعقد

اجتماع مشهود ، أعلن فيه أن الخلافة من بعده للصبي لبيج يسوع ، البالغ من العمر اثني عشر عاماً ، على أن تكون الوصاية عليه للرأس تيساما . ثم قال إن هذه هي رغبته الأخيرة ومن عصاها نزل عليه غضب الله والكنيسة ، ومن عصا أوامر ولي عهده استحق اللعنة السماوية !

وحين تراخت قبضة منليك ، بدأت الدسائس تحاك ، وصراع النفوذ يستمر ويشتد أواره ، ومؤامرات الرؤوس تستفحل وتتسع حلقاتها ، غير أن الخوف من الإمبراطور العليل ، واحتمال استرداده لقواه كان يحول دون المضي في مناوراتهم .

وفي غمرة هذه الأحداث ، كانت الإمبراطورة تايو قد جمعت زمام السلطة بين يديها ، وكانت جديرة بما اتصفت به من بطولة ، منذ قادت بنفسها فرقة اشتركت في تأديب الثوار بمقاطعة تيجرى عام ١٩٠٢ . . .

وكان أول ما يهم تايو أن تحمل رؤوس الحبشة على الاعتراف بالأميرة زاوديتو إمبراطورة على عرش الحبشة ، بدلا من لبيج يسوع ، بدعوى أنها ذات مواهب نادرة وقدرة عظيمة على تولى شئون الحكم ، ولكنها لم تنجح في إقناعهم . . .

ولم تلبث الفوضى أن عمت ، واستفحل الفساد ، وانتشرت تجارة الرقيق إلى حد دفع الدول الأوروبية إلى الاحتجاج ، وهكذا أخذت تنمحي مساحة المدنية الحديثة التي اتسمت بها الحبشة في عهد منليك وعهد خليفته لبيج يسوع الذي لم يدم طويلا ، ولم يبق منها إلا آثار

قليلة ، لنظام البريد ، والشبكة التليفونية ، وغاز الاستصباح الذى يستخدم فى إنارة بعض الطرقات الرئيسية فى العاصمة ، ثم تطعيم السكان ضد وباء الطاعون البقرى ، وضد الجديري الذى أصاب البلاد فى مستهل ١٩٠٣ .

ولم يكن ليج يسوع يشبه سلفه فى قوة الشكيمة واتساع الحيلة ، ومع هذا فقد تولى العرش قبل أن يتم السابعة عشرة ، بعد موت الوصى وقرار مجلس الوزراء بأنه أصبح راشداً ولا داعى لتعيين وصى جديد عليه ، فحكم البلاد وسط تيارات الدسائس المتلاطمة ، وكان فاسقاً ، زير نساء ، فقام على رأس نفر من الحاشية برحلة طويلة إلى مقاطعة (جميرا) الإسلامية ، حيث عقد على عدد من الفتيات ، أو اشتراهن بماله ، ولا يعلم إلا الله طبيعة هذه الصفقات التى عقدها ، فإنها صفقات لا شبيه لها فى الأمم المتحضرة .

ثم لم يلبث أن اعتنق الإسلام ، فأثار بذلك سخط الرؤوس ، وراجت عنه الشائعات المختلفة ؛ وزاد الطين بله حينما طرد المستشارين الذين كانوا عوناً لأبيه منليك ، فاشتعلت بسبب ذلك كله نيران الثورة فى مختلف أرجاء البلاد . . .

وقامت الحرب العظمى ، فظلت الحبشة بمنأى عنها ، لأن الدول الأجنبية كانت فى شغل شاغل بما هو أهم . . .

وفى عام ١٩١٦ أذاع ليج يسوع أنه من سلالة النبی محمد ، صلى الله عليه وسلم ، وأمر كتاب القصر أن يضعوا لنسبه شجرة تمتد إلى

الرسول ، تأييداً لدعواه ، ثم لبس العمامة وانتطق بالخنجر كما يفعل
الأمراء المسلمون ، وطلق زوجته المسيحية ، كما طلب إلى محمد
عبد الله المجذوب أن يزوجه ابنته . ثم قدم إلى قنصل تركيا علم الحبشة
الجديد ، وعليه عبارة (لا إله إلا الله) ، وطلب إليه أن تكون بلاده
خاضعة لسلطة شيخ الإسلام بالقسطنطينية .

وكان مبعوثو الدول برقبون تصرفات النجاشي الشاب بعين الحذر ،
ولا يستطيعون القيام بعمل مشترك خشية أن يثير الإمبراطور طوائف
المسلمين ويعلن الجهاد الديني ، فيجابه الحلفاء متاعب لا قبل لهم بها في
مختلف أنحاء العالم .

أما الفريق الآخر الناقم على النجاشي ، فكان على رأسه حاكم
مقاطعة شوا ، الذي انتهز فرصة غياب ليج يسوع في المناطق الجنوبية
من الحبشة لتأليف جيش يستخدم في محاربة الحلفاء إلى جانب الأتراك ،
فتقدم على رأس جيش كبير إلى العاصمة ، ثم طلبوا إلى المطران أن
يحلهم من يمين الولاء الذي قطعوه للنجاشي ليج يسوع ، ونادوا بالأميرة
زاوديتو ابنة منليك إمبراطورة على الحبشة ، على أن يكون الراس تيفرى
ابن ماكونن وصياً عليها وولياً للعهد بعدها

وهذا ما حدث ، فقد منح المطران الإمبراطورة الفتية بركاته ،
وشلح ليج يسوع وأخرجته من ظل الكنيسة ؛ فلما علم النجاشي المخلوع
بذلك ، حمل أمواله وفر إلى بلاد الدناكل . . .

المملكة الحديثة

(١٩١٦ - ١٩٣٤)

وأقيمت حفلات تتويج زاوديتو في ١١ فبراير ١٩١٧ ، وفي اليوم التالي نودي بالرأس ولدوجرجس وصياً على العرش ، وقيل تعليلاً لذلك إن الرأس تيفرى ما زال حدثاً ولا يستطيع أن يحمل أعباء هذا الشرف العظيم ... ولكن القصر الإمبراطوري لم يلبث أن شهد صراعاً بين تيارات النفوذ الثلاثة : نفوذ الإمبراطورة الشابة ، والوصى ، وفتنورارى وزير الحربية ، ولكل من هؤلاء نفوذ وأنصار تجعل قواهم متعادلة فلا سبيل إلى التمييز بينهم ...

لقد نشأ تيفرى وترعرع في قصر الرأس ما كونن ، حيث تسلت أضيواء المدنية الحديثة ، فتعلق بها ، وجعل هدفه أن تصبح الحبشة ذات يوم دولة عصرية ؛ ولكن ماذا يصنع الأمير المجدد إزاء العنصرين المحافظين في القصر ، اللذين لا يرضيان إلا بأن يظل القديم على قدمه ؟ إذن فليعمل تيفرى على استكمال أسباب المدنية في مقاطعة (هرر) ، حتى يحين الأوان وتنتهي له الفرصة لارتقاء العرش ، وله إلى أن يحين ذاك اليوم ، أن يتنقل أينما شاء في مختلف البلاد الأوربية ، ويحلب منها كل حديث للملكه الموعود ، فزار الإنجليز في عدن عام ١٩٢٣ ،

وركب الطائرة أمام أفراد الحاشية وهم ينظرون إليه في ذهول ، وفي السنة نفسها سافرت زوجته ويازارو مانان إلى القاهرة وحجت إلى القدس ؛ وفي العام التالي أبحر تيفرى إلى إنجلترا ، حيث استعاد تاج النجاشي تيودور الذى كان سير روبرت نابيير قد غنمه بعد فوزه على الأحباش .. أما فيتورارى وزير الحربية ، فكان على النقيض : محافظاً ، لا يقبل عن النظام الإقطاعى بديلاً . . .

وأما الإمبراطورة ، فكانت تؤيد أعداء التجديد حتى وفاة فيتورارى سنة ١٩٢٦ ، ثم أمسكت العصا من وسطها ، فاتخذت لنفسها مستشاراً ألمانياً ، ولكنها لم تلبث أن أقصته حينما تألب عليها مجلس الوزراء وهدد رئيسه بتقديم استقالته ؛ ومنذ ذاك الحين لزم جانب الحيلة ، معتمدة على مهابتها بوصفها ابنة منليك العظيم ، إلى أن فاجأها الحظ بما لم يكن فى حسابها ، إذ وقع ليج يسوع أسيراً فى يد قائد جيوشها ، فجاء به إليها ذليلاً صاعراً يطلب العفو والمغفرة . وكانت الإمبراطورة تود من صميم قلبها أن تتخلص من هذا الخصم العنيد ، لولا المرسوم الذى أصدره منليك ويقضى بالألا يحكم بالإعدام على أى أمير تجرى فى عروقه الدماء الملكية ؛ فماذا تصنع ؟ ليس لها من حيلة إلا أن تسلمه لأحد الرؤوس فينزل به قضاءه إذا أراد ؛ فتزداد مهابتها بذلك ؛ إذ تستنزل السخط على الرأس الذى ينافسها فى السلطة ، وتبقى لها كرامتها .

وسمع زعماء العشائر فى مقاطعة هرر بما تنتويه الإمبراطورة ، فأوفدوا إليها رسولا يستحلفها ألا ترسل أسيرها إلى الرأس تيفرى ، وإلا

كانت العواقب وخيمة . . .

وأخيراً استقر رأى الإمبراطورة على أن تعهد به إلى الرأس كاسا حاكم مقاطعة تيجرى ، فأرسلته إليه مكبلاً بالسلاسل الذهبية ، على مقتضى التقاليد فى معاملة أفراد الأسرة المالكة . . .

ولما مات وزير الحربية عام ١٩٢٦ ، كان الرأس تيفرى قد استكمل أسباب البأس ، وزود جيشه بالأسلحة الحديثة ، وقضى على الرؤوس الذين كانوا يسعون إلى اقتناص السلطة واحداً بعد واحد ؛ فدان له الجميع ؛ وخضعت زاوديتو للأمر الواقع ، فوافقت على تنويجه نجاشياً . . . ولم يكن صوت تيفرى مسموعاً فى مجالس الحكم ، حتى ذلك الحين ، إلا فى شئون الدولة الخارجية ؛ وكان قد سمع أثناء مفاوضات الصلح فى فرساي أن المناقشات تناولت بعض المسائل الإنسانية ، ومن بينها تحريم تجارة الرقيق ، وعمليات تهريب الأسلحة بوسائل غير شرعية ؛ فعشى أن يتعلل الأجانب بشيء من ذلك فيتدخلوا فى شئون الحبشة ؛ فبدا له ، بناء على نصيحة بعض مستشاريه الأوربيين ، أن يحث حكومة بلاده على أن تتقدم بطلب لقبولها عضواً فى عصبة الأمم . . .

ودار حول مشروع عضوية الحبشة نقاش طويل فى عصبة الأمم ، فعارضت إنجلترا وسويسرا والنرويج وأستراليا ، بدعوى عدم توافر البيانات عن الحكومة الحبشية وقدرتها على الضرب على أيدي تجار الرقيق ومهربى الأسلحة ؛ وأيدت فرنسا وإيطاليا قبولها ؛ فقال مندوب فرنسا إن قبولها سيؤدى إلى تعزيز سلطة الحكومة المركزية ، ويكون حاقراً لها على تحريم

تجارة الرقيق . وقال مندوب إيطاليا : إن تجارة الأسلحة غير محرمة ، وإلا فإن على الدول الأوروبية أن تمنع رعاياها من تهريب الأسلحة إلى قلب أفريقيا ! وبعد لأى فازت وجهة النظر الفرنسية الإيطالية ، وقبلت الحبشة بإجماع الآراء عضواً في عصبة الأمم ، مع بعض تحفظات قليلة ؛ وسنرى فيما بعد أن هذه العضوية كانت غنماً للأحباش ؛ فقد كان لإنجلترا وإيطاليا مصالح هامة في تلك البلاد ، فالأولى ترنو إلى بحيرة تسانا وضبط مياهها ، والثانية تريد وصل مستعمراتها في الصومال والحبشة بخط حديدى يمر بقرب أديس أبابا ، وتمتلك إيطاليا شقة من الأرض على جانبيه .

ودارت المفاوضات بين الدولتين خلال عام ١٩١٩ ، غير أن مركز إيطاليا خلال هذه الفترة كان ضعيفاً ، فأثرت بريطانيا الاحتفاظ بكامل حريتها في هذه الأصقاع ، فلما اشتد ساعد موسوليني وقويت شوكتة ، استأنفت المفاوضات بين الحكومتين ، وأسفرت عن تبادل مذكرات اعترفت فيها بريطانيا بنفوذ إيطاليا الاقتصادية في منطقة الخط الحديدى ، على شرط أن تنال بريطانيا في مقابل ذلك عقد الامتياز الخاص ببناء خزان تسانا ، وألا تعرقل إيطاليا مشروعات الإنجليز في حوض النيل . . .

وما إن أودعت هذه الوثائق في سكرتيرية عصبة الأمم ، حتى ثارت ثائرة فرنسا التى اعتبرتها خرقاً للمعاهدة الثلاثية المعقودة في ١٩٠٦ ، وطالبت بإيضاحات وتأكيدات في هذا الصدد .

أما الحبشة فقد اعتبرت هذه الاتفاقية إهانة موجهة إليها ، وجاء في احتجاجها لدى الإنجليز « إن الحكومة الحبشية ما كانت تنتظر أن يجرى اتفاق على قطعة من صميم أراضيها بين دولتين أجنبيتين ! » ولم يقتصر الأمر على الاحتجاج ، بل تقدم الوصى تيفرى بشكوى إلى عصبة الأمم ، ثم أثار ضجة حول هذه الوثائق ، فاضطرت الحكومة الإنجليزية للتقهقر ، وأعلن مندوبها أن المقصود من عبارة نفوذ إيطاليا الاقتصادية لا يعنى غير ضمان المنشآت الإيطالية في منطقة معينة وحمايتها من منافسة المؤسسات البريطانية .

وهكذا نجح تيفرى في استخلاص حق كاد يضيع على بلاده ، كما يدل هذا الحادث على مدى ما يمكن أن تفيد دولة صغيرة من انتمائها لعصبة الأمم ، إذا كانت مصالح الدول العظمى متضاربة فيها . ونجح تيفرى كذلك في الميدان الداخلى ، إذ تبين أنصار فيتورارى أن ابن ماكونن كان على حق حينما دفع ببلاده في تيار المدنية الغربية ، فقد صارت ملء الأبصار ، ملء الأسماع ، في العالم أجمع ؛ ولم يحد عن جادة الصواب عندما اصطفى جماعة من المستشارين الأجانب ؛ وكان أربيا بعيد النظر حينما حث حكومة بلاده على الانضمام لعصبة الأمم التى نصرته على زمرة المتآمرين على المملكة .

ولم يمض عامان (١٩٢٨) حتى وفقت الدبلوماسية الإيطالية في عقد معاهدة صداقة مع الحبشة لمدة ٢٠ عاماً . كما تم الاتفاق على أن تقوم شركة حبشية إيطالية ببناء طريق للسيارات ما بين بلدة ديسييه بالحبشة

وميناء عصب الإيطالي ، وفي مقابل ذلك تمنح إيطاليا الحبشة منطقة
بحرية حرة في هذا الميناء ؛ ولا ريب أن المشروع ينطوي على مزايا
لا يستهان بها لكلا الطرفين .

واتجه الرأس تيفرى بعد ذلك إلى تقوية الجيش ، فاستدعى بعثة
عسكرية بلجيكية لتدريب الحرس الإمبراطوري لكي يكون نواة لجيش
عصري يستخدم الأسلحة الحديثة .

وفي عام ١٩٣٠ أمر تيفرى بإجراء مفاوضات لإنشاء بنك للدولة
الحبشية ، وعهد في الوقت نفسه إلى إحدى المؤسسات الأمريكية دراسة
مشروع خزان يقام على بحيرة تسانا ، بيد أن أزمة القطن العالمية حالت
دون مواصلة هذه الأبحاث . . .

ولم تكن الشؤون الدينية أقل حظاً من الشؤون الدنيوية في نظر
تيفرى ؛ فقد طلب تعيين مطران جديد ، واتمس من بطريرك الأقباط
زيارة الكنيسة الحبشية ، ابنة كنيسة الإسكندرية الروحية .

وعنى بعد ذلك بتنظيم استيراد الأسلحة ، فوقع مع إنجلترا وفرنسا
وإيطاليا إتفاقية تقضى بتحريم استيراد الأسلحة على أيدي الأفراد
والهيئات الخاصة ، وأن يكون الحصول عليها بالطرق الرسمية عن طريق
الهيئات الدبلوماسية .

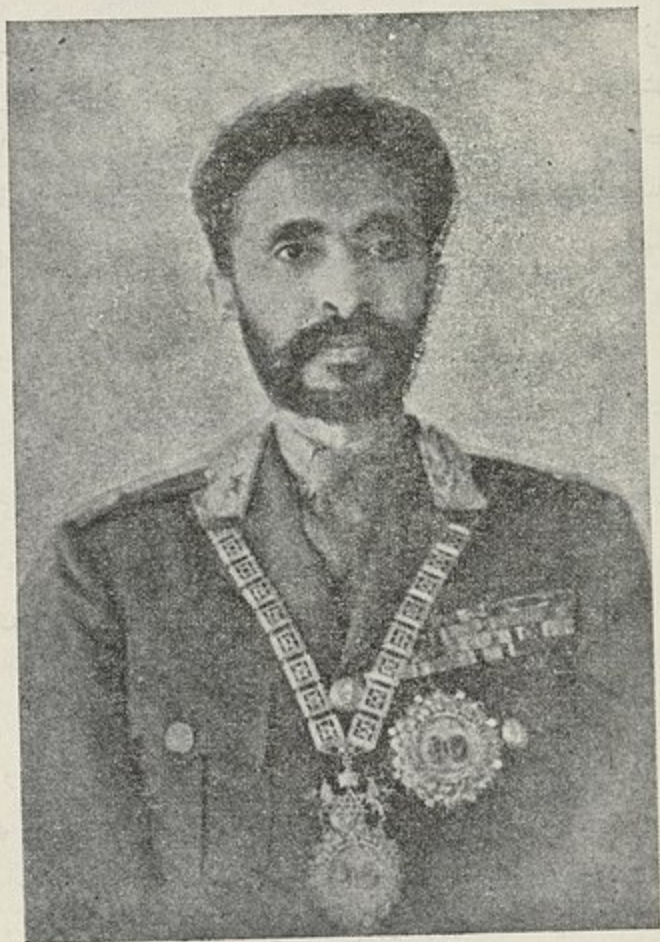
كل هذا كان ميسوراً له في الميدان الخارجي ، ولكن مثل هذه السرعة
في حسم الأمور كانت متعذراً في الميدان الداخلي ؛ وقد أدرك تيفرى
بما أوتي من فطنة أن الشعب شديد التمسك بعاداته وتقاليده التي توارثها

جيلا بعد جيل ، فليس من الممكن أن يفرض عليه الحديد دفعة واحدة ، وإذا أمكن ذلك في العاصمة فما لا شك فيه أنه سيلقى مقاومة شديدة في الأقاليم ؛ يضاف إلى كل ذلك أنه ما دامت الإمبراطورة على قيد الحياة ، والسلطة موزعة بينه وبينها ، فلن يكون صاحب الكلمة المسموعة لدى الرؤوس ؛ إذن فليعتصم بالصبر إلى أن تنقش الغمة وتتحقق الآمال ...

وجاء اليوم المرتقب ، فماتت زاوديتو في سنة ١٩٣٠ ، وتوج تيفرى إمبراطوراً على الحبشة باسم هيلاسلاسى ، فشهد حفلات التتويج جميع الأمراء وأعضاء البعثات الدبلوماسية ، كما جاء دوق جلوستر نائباً عن أبيه الملك جورج الخامس ، ليقدم فروض التهئة وينحني أمام الإمبراطور ... وهكذا أصبح هيلاسلاسى مطلق اليدين في شئون بلاده ؛ فلهذا

الذى يستطيع أن يحول بينه وبين ما يبغي إجراؤه من إصلاح ؟ أجل ، إنه الآن السيد المطاع ، صاحب الأمر والنهى ، ولكنه تعلم الحرص وطول الأناة خلال الأهوام التى كان ينتظر فيها ولاية العرش ، ولن يقدم على عمل إلا مثبداً ، فقد اتعظ بما جرى لأمان الله فى بلاد الأفغان ، إذا أراد أن يثب بشعبه نحو الحضارة طفرة ، فكان ذلك وبالا عليه ، فخلع عن العرش ليقضى ما بقى من حياته فى المنفى .

وكان حجر الزاوية فى سياسة الإمبراطور أن يوطد أركان الدولة ويبعد عنها أسباب الثورة والعصيان ، فإذا تم له ما أراد من ذلك أدخل ما شاء من النظم الغربية فى أساليب حياة الشعب ؛ فكان أول ما فكر فيه ملء المناصب العليا فى مختلف الأقاليم برجال من أنصاره ، فكلما خلا



الإمبراطور هيلاسلاسي

منصب عين فيه شخصاً ممن نهلوا من ثقافة أوربا أو عاش في ربوعها زمناً .
 وذهب هيلاسلاسى إلى أبعد من ذاك في الدستور الذى منحه للشعب
 في ١٦ يولييه ١٩٣١ ، إذ جمع الرؤوس والأمراء وأعيان البلاد ، وخطب
 فيهم قائلاً : إن الأباطرة من قبل كانوا يحكمون الحبشة حكماً مطلقاً ،
 بوصفهم آباء الشعب ؛ ولكن الحال تغير الآن ، فلا بد أن تضطلع
 الأمة بجانب من مهام الحكم . .

وهكذا شهدت البلاد أول مجلس نيابى لها يجتمع بين الفينة
 والفينة ليناقدش مشروعات القوانين ، وإن كان زمام السلطة الفعلية في
 قبضة النجاشى الذى ظل يعتمد على مشورة ذوى رأى من الأجانب ،
 كما كان يعتمد على أعضاء السلك السياسى الأحباش في ملء مناصب
 القضاء ؛ وكان الناس من قبل يحتكمون في منازعاتهم إلى رجل البوليس أو
 إلى أى شخص يقبل المتخاصمان حكمه ؛ فلم يكن يرفع إلى القضاء العالى
 سوى القضايا الكبيرة ، لضخامة نفقات الدعاوى ، فإذا كان أحد طرفى
 النزاع أجنبياً ، نظرت الدعوى أمام المحكمة بحضور قنصل بلاده . . .

ومن التدابير التى اتخذها الإمبراطور خلال السنوات الأربع التى
 حكمها والتى استرعت اهتمام الدول الأجنبية ، ما يتعلق بقمع تجارة الرقيق ،
 ألغى الرق وحرر أبناء العبيد ، ومنح العبد الحرية بمجرد وفاة سيده . . .
 وأهم من ذلك تحقيقه لوحدة الإمبراطورية ، فأصبحت الحكومة
 المركزية وطيدة الأركان ، تدين لها الأقاليم القريبة والنائية بالطاعة والولاء ،
 بعد أن تولى شئونها رجال من أولياء النجاشى الصالحين .

النزاع الحبشى الإيطالى

لم تنقطع الحوادث على الحدود الحبشية الإيطالية بعقد معاهدة الصداقة بين إيطاليا والحبشة عام ١٩٢٨ ، وكان لكل حادثة تقع روايتان متناقضتان فى معظم الأحيان ، فليس فى مقدور المؤرخ المنصف أن يميز الرواية الصحيحة من الرواية الزائفة ؛ ومن أجل ذلك لا نستطيع القول بأن العلاقات بين البلدين قد ساءت بسبب الاختلاف فى تفسير مواد المعاهدة ، أو بسبب تتابع حوادث الحدود .

ومهما يكن من أمر فقد استفحل النزاع بين الطرفين بسبب طريق السيارات الذى يمتد من مقاطعة هرر إلى ميناء عصب ؛ وكان سبب النزاع إصرار حكومة المستعمرة الإيطالية على أن الجزء الحبشى من الطريق المار عبر إريتريا إلى الحبشة ، يجب أن يستكمل على أيدي المهندسين الإيطاليين ؛ ولم توافق الحكومة الحبشية على ذلك ، حفاظاً على سيادتها ، محتجة بأن الطليان كلما منحوا امتيازاً طغوا وطالبوا بمزيد من الحقوق ؛ فقد كان الأمر قاصراً فى المعاهدة على الطريق بين ديسبيه وميناء عصب ، وها هم أولاء يطالبون بربط ديسبيه بالعاصمة الحبشية !

واشتد الجدل وتضاربت الآراء بين الطرفين ، فأخرج الطليان من ملفاتهم القديمة تقارير عن اعتداءات على مواطنيهم ، وغارات مزعومة

على الحدود ، وهكذا عادت قصة الذئب والحمل على المسرح الدولى !
وقد كان حادث (وال وال) هو النقطة التى امتلأت بها الكأس
وفاضت ؛ وتفصيل الأمر أن لجنة إنجليزية حبشية مختلطة قامت على رأس
سمائة جندى من الأحباش لرسم الحدود بين الصومال البريطانى والأراضى
الحبشية ؛ وكان الطليان قد توغلوا من قبل فى هذه المنطقة لكثرة الآبار بها
وأنشأوا فيها عدة نقط حصينة ؛ فلما وصلت اللجنة إلى المنطقة اعترض
الطليان وأرسلوا عدة طائرات حومت فوق المكان على سبيل الإرهاب والاستفزاز ؛
فآثر أعضاء البعثة السلامة وانسحبوا من منطقة الآبار ، غير أن اللجنة
رأت أن تترك فى المنطقة فصيلة من الجند ، حتى لا تتورثاثة أهالى
أوجادين إذ يعتقدون أن فى هذا تسليما بحقوق الطليان فى الآبار والعيون ؛
وفى غمرة هذا الهياج النفسى نشبت المعركة فى ٥ ديسمبر ١٩٣٤

ولو توفر حسن النية من الجانبين لانتهى الحادث بسلام ؛ ولكن
الحكومة الإيطالية أصرت على أن تقدم الحبشة اعتذاراً ، وأن ترسل فرقة حبشية
لتحية العلم الإيطالى بوال وال ، وأن تدفع غرامة قدرها ٢٠ ألف جنيه !
فرفض الأحباش هذه المطالب جميعاً ، لأن اللجنة التى اختيرت
لتحقيق الموضوع لم تثبت مسئولية على الحبشة ؛ ولما اقترحت أديس أبابا عرض
التزاع على هيئة تحكيم ، رفضت إيطاليا ، فرفع الأمر إلى عصبة الأمم . . .
وظلت الدعوى راكدة فلم تعرض على بساط البحث عدة أشهر ،
وكانت الدول الأوروبية تريد إرجاء النظر فى النزاع أطول وقت ممكن ،
حتى تهدأ النفوس الثائرة فيتسنى إيجاد تسوية سلمية ترضى الفريقين . . .

ولكن إيطاليا ظنت أن الدول الأوروبية بهذا الإرجاء تغض الطرف عن نشاطها في أفريقيا ، فبادأت بالعدوان ، إذ أرسلت إلى إريتريا عدة آلاف من ذوى القمصان السود ، وقوة كبيرة من الجيش الإيطالى . . .

ثم اتسع نطاق الاستعدادات الحربية فى إيطاليا ، وبدأت صحفها تنشر المقالات الحماسية لاستشارة حمية أبناء الوطن ، وحثهم على الأخذ بثأر عدوة ! وبذلت محاولات دولية عدة ، استرضاء لإيطاليا ، فجاء ردها حاسماً فى بيان أدلى به وزير خارجية إيطاليا ، مؤداه أن سياسة الحبشة وتصرفاتها تحمل فى طياتها الدليل على عداء مستحكم بين البلدين !

وبذلك كشف الطليان القناع عن رغبتهم فى الحرب مهما كانت النتائج ! واتخذ الإمبراطور موقفاً لقيادته فى الصفوف الأولى ، ودارت رحى الحرب بين الأسلحة الحديثة الفتاكة وقنابل الخردل الخائفة المروعة ؛ ورأى النجاشى ما نزل بشعبه من هلاك ودمار ، وأيقن أن استمراره فى المقاومة على هذه الصورة يشبه أن يكون حكماً بالإعدام على الشعب كله ؛ فآثر الانتقال إلى ميدان آخر يدافع فيه عن وطنه وحرية شعبه ؛ فذهب إلى جنيف ، ليمسح صوته للعالم الحر ، عسى أن ينتشل أمته من هذه المحنة ! وغادر عاصمة ملكه فى عام ١٩٣٦ ، وقلبه ملىء بالثقة فى عدالة السماء . . .

وظل خارج بلاده خمس سنوات ، إلى أن عاد إليها فى ربيع سنة ١٩٤٢ وقد اندحر أعداؤها وزهق باطلهم ، إن الباطل كان زهوقاً .

وهب نسيم الحرية من جديد على شعب ضعيف ، آمن بحقوقه واستبسل فى الدفاع عنها فأيده الله ، وتلك عاقبة المؤمنين . . .

في أعقاب الحرب العالمية الثانية

حافظت الحبشة على استقلالها منذ القدم ، لأن طبيعة أراضيها الوعرة وما يتخللها من جبال عالية ووديان سحيقة ، كانت تقف سداً منيعاً دون الغزاة الفاتحين .

وعلى الرغم من أن موقع الحبشة الجغرافي وحاجتها الاقتصادية كان من شأنهما أن يدفع حكومتها أديس أبابا نحو الكتلة الغربية ، فإن ماضي بعض الدول الأوروبية علمها الحذر ، فلم تعد تأمن جانب أوروبا ، واعتمدت في بعث اقتصادياتها واستغلال مواردها إلى الولايات المتحدة ... وقد استغلت الولايات المتحدة الفرصة ، فأوفدت بعض رجالها العسكريين لتدريب الجنود الأحباش وتزويدهم بالأسلحة الحديثة ، لكي تتخذ من الأراضي الأثيوبية قاعدة حربية جوية بعيدة عن ميادين القتال في الشرق الأوسط ، تستخدمها كمركز جوي ثانوي إذا ما تعذر عليها في الحرب العالمية المنتظرة استخدام مطار الظهران بالمملكة السعودية ... وقد تخلصت الحبشة من الخطر الإيطالي الذي كان جاثماً على حدودها في الصومال وإريتريا ، بل نجحت في ضم الإقليم الأخير إليها ، وعلى الرغم من ذلك ظل سوء التفاهم قائماً بين روما وأديس أبابا فحمل هذا حكومة الحبشة على التودد ليوغوسلافيا وتوثيق العلاقات معها . . .



السفير الإيطالي بين يدي النجاشي، لأول مرة، بعد قطيعة دامت ١٦ سنة !

وقد نجح الأحباش كذلك في التخلص من سيطرة بريطانيا ؛ بدعوى أن تحرير الحبشة وإجلاء إيطاليا عنها يرجع إلى كفاح بريطانيا ! وقد توثقت عرى الصداقة بين أمريكا والحبشة على أساس الثقة المتبادلة ؛ وفي سبيل هذه الصداقة أرسلت الحبشة فريقاً من أبنائها يحاربون جنباً إلى جنب مع الأمريكيين في كوريا . . .

وفيما عدا هذه العلاقات ، لا تُعرف لاثيوبيا مصالح ذات بال مع بقية الدول ، إلا مع مصر والسودان ، وقد تطورت علاقاتها مع كلا البلدين في الفترة الأخيرة . . .

وليس ثمة ما يلفت النظر في علاقات مصر بأثيوبيا إلا ما اتسمت به من طابع الحذر والشك تجاه مصر ، على أثر توثق العلاقات بين شطرى وادى النيل ، وحاجة مصر إلى تنفيذ بعض المشروعات الخاصة بضبط مياه روافد النيل التى تجرى فى الأراضى الحبشية . . .

ولدبنا من الأسباب ما يحمل على التأكيد بأنه لا مبرر لارتباب الأحباش فى نيات المصريين ، بل ليس من مصلحتهم أن تقوم العلاقات بين البلدين على أساس من الخيطة والحذر ، كما أن من مصلحة أثيوبيا أن تقوم إلى جانب حدودها دولة قوية عزيزة الجانب ، كدولة وادى النيل ، ليس لها مطامع استعمارية ، بل تحدها الرغبة الصادقة فى التعاون مع أثيوبيا وتربطها بها أحسن علاقات المودة كدولتين مستقلتين ... ونعود إلى العلاقات الجديدة التى تربط بين الولايات المتحدة وأثيوبيا ، فنقول : إن من مظاهر تدعيمها فى الفترة الأخيرة ، عقد

معاهدة بين البلدين ، ودعوة الإمبراطور لزيارة الأراضي الأمريكية .
 أما المعاهدة فقد تم التصديق عليها في ٧ سبتمبر ١٩٥١ ، وتشتمل
 على تسع عشرة مادة ، تنص أولاها على أن تكون علاقات البلدين قائمة
 على أساس الصداقة الأكيدة والسلام الدائم ، وأن يعملوا في سبيل
 تحقيق أغراض هيئة الأمم المتحدة ، وأن يتبادل الطرفان المبعوثين
 السياسيين بما لهم من حصانات وامتيازات وحقوق ، وأن تُنشأ في أراضي
 الطرفين قنصليات يتولى شؤونها مبعوثون معتمدون ، ويتمتعون بالمزايا
 والحصانات ، كما يعفون من أداء الضرائب والرسوم والعوائد على أساس
 المعاملة بالمثل .

وتنص المادة السادسة على أن تسمح حكومتا الطرفين لرعايا الدولة
 الأخرى بالإقامة في أراضيها بقصد الاشتغال بالصناعة أو ممارسة التجارة
 أو القيام بالدراسات العلمية ؛ فضلا عن حماية هؤلاء الرعايا وتأمين
 سلامتهم وأموالهم ومنحهم حرية إقامة الشعائر الدينية .

وتقضى المادة الثانية عشرة بأن تمنح حكومة كل من الطرفين
 المتعاقدين منتجات وحاصلات الدولة الأخرى أقصى حد من الرعاية التي
 تتمتع بها منتجات وحاصلات أية دولة أخرى ، فلا تفرض على استيرادها
 قيوداً أو رسوماً جمركية أعلى ، أو تحدد مقاديرها أو قيمتها القصوى .
 وتنص المادة الرابعة عشرة على أن تكون التجارة والملاحة حرة بين
 أراضي الطرفين ، فلا يفرض أى حظر على دخول سفينة تحمل علم
 الدولة المتعاقدة ميناء في أراضي الدولة الأخرى .

وتقضى المادة الخامسة عشرة بأن يتعهد كل من الطرفين المتعاقدين بأن تلجأ المنشآت التي تملكها الحكومة أو تتولى الإشراف عليها في الحصول على ما يلزمها من حاجيات ، إلى مؤسسات وبيوتات الصناعة في أراضي الطرف الآخر ، مع مراعاة أسعار السوق العالمية .

وتنص المادة السادسة عشرة على أن أحكام هذه المعاهدة لا تحول دون تطبيق الإجراءات اللازمة فيما يتعلق بتنظيم صادرات وواردات الذهب والفضة ، أو المواد الإشعاعية ، أو الأسلحة والذخائر والعتاد الحربي . كما لا تمنح هذه المعاهدة أى حق في التدخل في الشؤون السياسية ، ولا تمتد إلى المزايا الخاصة التي سبق أن منحتها الولايات المتحدة الأمريكية لبعض أراضيها أو ممتلكاتها ، كجزيرة كوبا أو منطقة بناما .

وتقضى المادة السابعة عشرة بأن أى خلاف ينشأ عن تطبيق أحكام هذه المعاهدة أو تفسيرها ، ولا تتيسر تسويته بالطرق الدبلوماسية العادية ، يُعرض بناء على رغبة أحد الطرفين على محكمة العدل الدولية .

وتحل هذه المعاهدة محل الاتفاقية التجارية الموقعة بأديس أبابا من قبل في ٢٧ يونيو ١٩١٧ .

وتنص المادة الأخيرة على أن تسرى هذه المعاهدة خلال عشر سنوات قابلة للتجديد ، إلا إذا أُنذر أحد الطرفين الطرف الآخر برغبته في الفسخ قبل عام من تاريخ انتهائها .

هذا وقد وجهت الحكومة الأمريكية دعوة إلى إمبراطور الحبشة لزيارة الولايات المتحدة ، فوصل هيلاسلاسى إلى نيويورك في ٢٥ مايو

الماضى ، وأعدت له وزارة الخارجية استقبالا حافلا يليق بمكانته .
 وكان بعض الصحفيين الأمريكيين قد تقدموا بأسئلة إلى السلطات
 الأثيوبية ، فأعدت عليهم ردوداً باللغة الإنجليزية تلاها الإمبراطور على
 الصحفيين عند وصوله ، ولكن أحد الصحفيين توجه إلى هيللا سلاسى
 بسؤالين شفوئين ، أجاب جلالته من أحدهما وامتنع عن الإجابة على
 الآخر ؛ وكان أولهما عن استثمار رؤوس الأموال الأمريكية فى الحبشة ،
 أما الثانى فكان استفساراً عما إذا كانت هناك نية فى إنشاء قواعد حربية
 فى الأراضى الحبشية

وقد تضمنت إجابة الإمبراطور على السؤال الأول : أن هذا الاستثمار
 يعتبر فى نظره أكبر مساعدة يمكن أن تقدمها الولايات المتحدة لبلاده ؛
 وأضاف : إن الفرص متوفرة لهذا الاستثمار فى ميادين التعدين والمواصلات
 والزراعة . . .

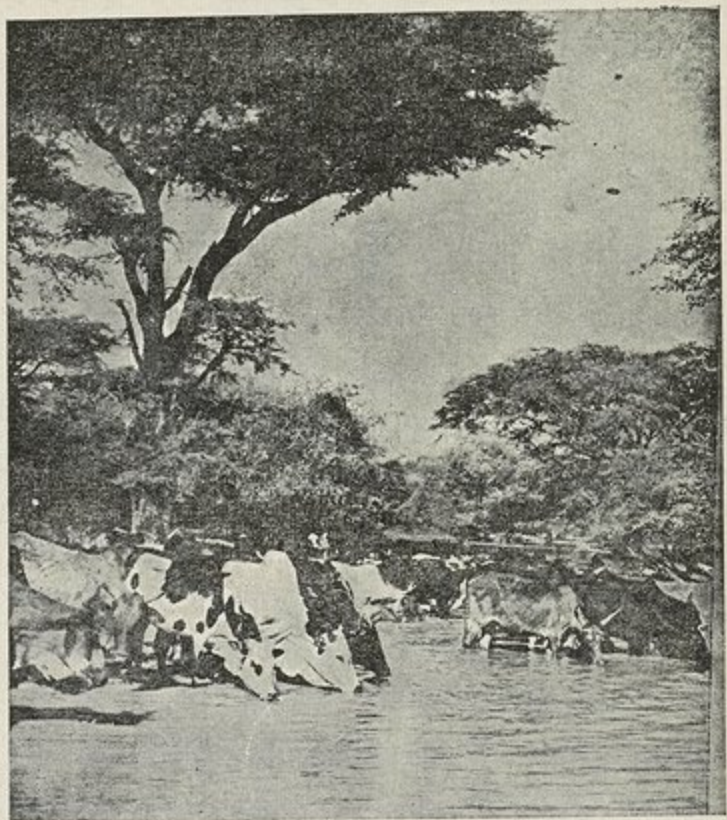
ولما كانت الولايات المتحدة جادة فى البحث عن موارد جديدة
 لكثير من المعادن التى تحتاج إليها فى صناعاتها الحربية ، لا سيما معدن
 الأورانيوم الذى وجد بكميات كبيرة فى الكونغو البلجيكية وبعض المناطق
 الأفريقية الأخرى ، ولما كان معقد رجائها أن تعثر على معدن الكوبالت
 والبتروى فى الحبشة — فلأنها لا شك ترحب بهذا العرض الحبشى ، ولن
 تألوا جهداً فى الوصول إلى أغراضها ما دام معين المال عندها لا ينضب ...
 ولقد أشار الإمبراطور فى الخطبة التى ألقاها بالكونجرس الأمريكى
 إلى قيام بعض الشركات الأمريكية بالتنقيب عن الذهب والبحث عن

البترو في بلاده حالياً

كما أن الحكومة الأثيوبية عينت خبير أمريكياً في الشؤون المالية ، فلم يلبث أن قام بتعديل نظام العملة ، فربط الدولار الحبشى بالدولار الأمريكى ، وحول بعض الصادرات التى تباع بالدولار إلى الولايات المتحدة مباشرة ، بدلا من وصولها على أيدي الوسطاء من الدول الأخرى ... ويسود الاعتقاد بأن الإمبراطور وحاشيته قد انتهزوا فرصة زيارتهم للولايات المتحدة للتعاقد مع عدة شركات أمريكية لاستغلال الموارد الطبيعية فى الحبشة

ولا شك أن مسألة المواصلات لا تقل فى نظر الأمريكيين عن المعادن فى أهميتها ، بل قد تزيد ، لأنها ذات اتصال مباشر بالجهود الحربى الأمريكى ؛ وقد جاء على لسان الإمبراطور فى الخطبة التى ألقاها بالكونغرس : أن حكومة بلاده قد تعاقدت مع إحدى الشركات الأمريكية لتنظم شؤون الطيران المدنى ، فى نطاق معاهدة الصداقة والتجارة المعقودة بين البلدين والتى أوردنا بعض نصوصها فيما سبق .

ولقد أصبح للحبشة بعد ضم أريتريا (المستعمرة الإيطالية السابقة) ساحل طويل على البحر الأحمر ، ولذا اتجهت النية إلى إعداد خطوط ملاحية حبشية برؤوس أموال أمريكية ، وربما ترتب على ذلك ربط ميناء مصوع بميناء إيلات الإسرائيلى ؛ ولا شك أن حكومة تل أبيب ترحب بتنفيذ هذا المشروع الذى يتيح للتجارة اليهودية فرصة الوصول إلى القارة الأفريقية ، كما يسهل لها الحصول على المواد الخام اللازمة لصناعاتها ،



الثروة الحيوانية في الحبشة، ومن أجلها تقطع إسرائيل في حسن الصلة بالحبشة
لتمونها بما تحتاج إليه من اللحم !

دون حاجة إلى المرور بقناة السويس ، حيث تصادفها كثير من العراقيل ...
وهذه المناسبة عرضت بعض الصحف الأمريكية لهذا المشروع ،
فنوّهت - بوحى من اليهود - بوجه التشابه بين مركز الحبشة ومركز
إسرائيل ، وذكرت أن الإمبراطورية الحبشية دولة مسيحية محاصرة بالبلاد
الإسلامية من كل جهة ، وأن إسرائيل تعاني مثل ذلك الوضع ؛ فلا
غرو أن يتعاون كلا البلدين بإنشاء خط ملاحى يربط بين ساحليهما ويكفيهما
شر القيود التى تفرض على التبادل التجارى بينهما ، فى الوقت الحاضر !
وقد تردد - فضلا عن ذلك - أن الحبشة قد تعقد مع الولايات
المتحدة اتفاقية تمنحها الحبشة بمقتضاها مزايا تجعل ميناء مصوع لأمریکا
شبيهاً بميناء عدن لبريطانيا على الشاطئ المقابل لأريتريا ؛ غير أن المقامات
المسئولة فى كلا البلدين تتجنب التعرض لهذا الموضوع ، بل تنكره
تماماً ، زاعمة أنه ليس للأمريكيين أية أغراض سياسية أو حربية فى
الحبشة ، وإذا كان هناك مجال للمفاوضات بين السلطات الأمريكية
وإمبراطور الحبشة ، فإنه قاصر على موضوع محطة الإذاعة اللاسلكية
(مارينا) التى تريد الولايات المتحدة استئجارها واستغلالها لأغراض إذاعية .
هذا هو الموضوع الذى تتحاشى دوائر الحبشة الرسمية اليوم الخوض
فيه ، ولكن الشواهد تدل على أن هناك اتفاقية سرية بين البلدين ، تقضى
بمنح الولايات المتحدة بعض القواعد العسكرية فى الأراضى الحبشية ؛
وقد ورد على لسان السفير الأمريكى بأديس أبابا تأكيد بهذا المعنى ،
وقيل فى واشنطن إن المقصود به هو الاتفاقية الخاصة بمحطة مارينا

اللاسلكية ، ولكن المعتقد أن الحبشة تريد أن تلعب في أفريقيا مثل الدور الذى تقوم به تركيا فى أوروبا ، فتصير بذلك دعامة الخط الدفاعى الثانى للمعسكر الغربى إذا ما شئت نيران الحرب العالمية المقبلة . . . وتدل بعض التقارير لمناسبة زيارة رئيس وزراء تركيا للولايات المتحدة ، على أن رأى العسكريين الأمريكين متجه إلى حماية الشرق الأوسط من العدوان الروسى المرتقب ، عن طريق إنشاء مثلث دفاعى ، أركانه الباكستان وتركيا ومصر ، وربما تحول الاتجاه أخيراً إلى إحلال الحبشة محل مصر فى هذا المثلث ؛ فإن صحت هذه المشروعات فإن الاتفاق على منح الولايات المتحدة قواعد عسكرية فى الحبشة يصبح ذا أهمية حيوية بالنسبة لمصر والبلاد العربية جميعاً . . .

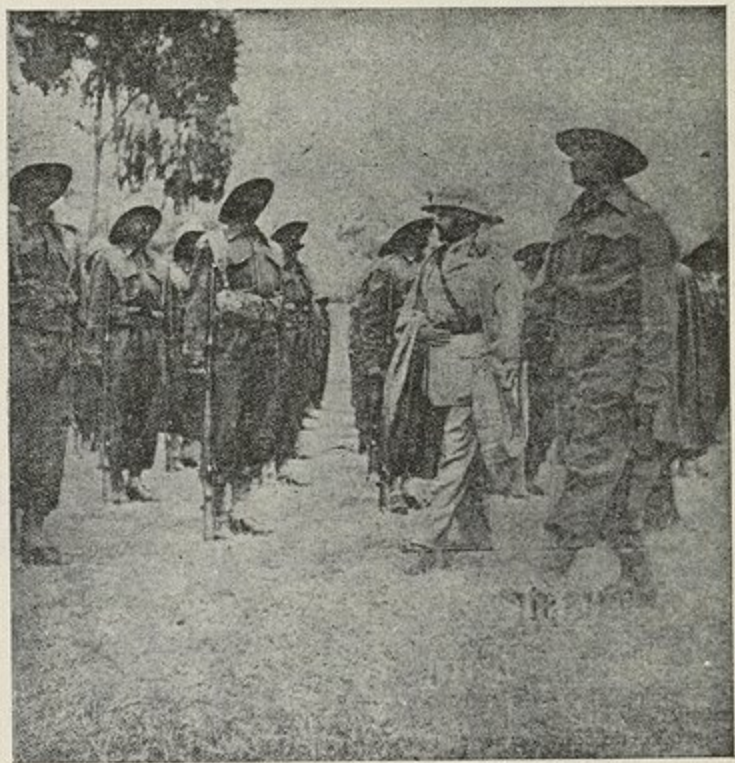
وقد أشار الإمبراطور فى الخطاب الذى ألقاه بالكونجرس إلى أهمية بلاده الاستراتيجية ، وإلى أن سلطان النجاشى قد امتد فى وقت من الأوقات إلى ساحلى البحر الأحمر ، حتى وصل إلى حدود مصر العليا ؛ فإذا كان لهذه الإشارة مغزى فى الوقت الراهن ، فإننا لا نستطيع تفسيرها إلا بأنها إعراب عن رغبة الإمبراطور فى ربط مصير بلاده بالمعسكر الغربى ، مع ما يستتبع ذلك من آثار وعواقب . . .

فإذا أضفنا إلى ذلك تكرار جلالته الإشارة إلى الضمان الجماعى العالمى ، وقوله إن القوى البشرية فى الحبشة أمر يجب أن يحسب حسابه ، وأن بلاده تتمتع بالاستقرار فى منطقة عز فيها الاستقرار—نقول أن تكراره لهذه الإشارة ينطوى على تحديد ضمنى لاتجاهات السياسة الحبشية الجديدة . . .

ولا يفوتنا أن نذكر في هذا المقام مدى الصلة الروحية الوثيقة بين الكنيستين القبطية المصرية والحبشية ، وما طرأ عليها من وهن في الآونة الأخيرة ، بسبب ما نشب بينهما من خلاف ؛ والأمل وطيد في عودة المياه إلى مجاريها بين الكنيسة الأثيوبية وأمها الروحية ، كنيسة الإسكندرية . ولكن أمراً له مغزاه حدث في هذه الأثناء ، فقد خلا الخطاب الذي ألقاه الإمبراطور في الكونجرس من الإشارة إلى العلاقات بين الكنيستين ، فهل لهذا الإغفال من تأويل ، إلا بأنه نزعة من جانب الأقباش نحو التحرر من سلطان الكنيسة القبطية ، أو استجابة لمحاولات تقوم بها السلطات الأمريكية لتحويل الكنيسة الحبشية إلى المذهب البروتستانتي ! ويؤيد هذا الظن ، وبعض الظن إثم ، ما حدث في المأدبة التي أقامها السفير الأمريكي بالحبشة تكريماً للإمبراطور ودعا إليها عشرين شخصاً من بينهم تسعة من أقطاب الكنيسة البروتستانتية !

ولكن هل ينجح الأمريكيون فيما أخفق فيه كثيرون من قبل ؟ ولقد أحيطت المفاوضات التي دارت بين الإمبراطور وحاشيته وبين ممثلي المصارف الأمريكية بسياج صفيق من الكتمان ، غير أن المقامات المطلعة تؤكد أن اتفاقاً تم بين الطرفين على منح الحبشة قرضاً بمبلغ خمسمائة مليون دولار ، أو ما يقرب من مئتي مليون جنيه ، تصرف الدفعة الأولى منه وقدرها ١٠٠ مليون من الدولارات ، في سبتمبر المقبل .

وعهدنا بالأمريكيين أنهم لا ينفقون المال جزافاً ، وإنما يستهدفون في كل ما يبذلون أن يحصلوا على مزايا أعظم مما يبذلونه ، في الميدانين السياسى



فرقة من الجيش الخبشي تتأهب للحرب في كوريا ، ولم يكن
في كوريا من الأفريقيين غيرهم !

والاقتصادي ، أو أن يحصلوا على نقط ارتكاز استراتيجية يعتمد عليها حين يجد الجدد وتندلع شرارة الحرب المرتقبة بين المعسكرين الشرقي والغربي .

والمعتقد أن الولايات المتحدة حصلت فعلا على عدة مزايا في مختلف الميادين ، فقد علمت الدوائر الدبلوماسية الأجنبية في أثيوبيا أن من بين المشروعات التي درست وتم الاتفاق على تنفيذها ، إعداد ميناء مصوع بحيث يصبح ميناء حربياً ذا قيمة ، تحتله الولايات المتحدة بطبيعة الحال نظير ما قدمت من تسهيلات مالية واقتصادية ضخمة ، هذا إلى تهيئة ميناء عصب بحيث ينافس ميناء عدن الإنجليزي وجيبوتي الفرنسي . . .

ولقد دارت مفاوضات من قبل مع بعض الألمان للقيام بتنفيذ المشروع الخاص بتوسيع ميناء عصب ، ولكننا نستبعد الآن أن يقوم الألمان بهذا المشروع ، بعد أن حصل الإمبراطور على هذا القرض السخي !

وتدل الشواهد على أن من بين المشروعات التي تعكف على دراستها البعثة الأمريكية في الحبشة ، مشروع إنشاء نواة لأسطول حربي وتجاري ؛ وقد بدأت تستأجر بعض البواخر وترفع علمها عليها ، كما أنشأت مدرسة بحرية في ميناء مصوع قد تبدأ الدراسة فيها خلال فصل الخريف المقبل ، وسيعهد إلى عدد من اليونانيين تدريب الطلبة الأحباش وإعدادهم لقيادة الأسطول .

وقصارى القول أن أثيوبيا مقبلة على عهد من التقدم والرخاء ، لما فيها من موارد طبيعية غزيرة ، أكثرها خطراً وأهمية ، اليورانيوم والكوبالت ، كما سبق أن قدمنا ، والذهب والبتروال اللذان تدل أعمال التنقيب على وجودهما بكميات وفيرة في الأراضي الأثيوبية ، ثم مشروعات بحيرة تسانا ...

مباحث حول بحيرة تسانا

من بحيرة تسانا العميقة في وسط الحبشة ، ينبع نهر « آباى » ، وينحدر نحو الجنوب الشرقى ، ثم يدور حول الجبال ليتخذ اتجاهًا جديدًا نحو الشمال الغربى ، حيث يسمى « النيل الأزرق » ثم يمضى في مجراه العميق وسط الجبال حتى يصب في النيل الأبيض عند الخرطوم ؛ ومنه يأبى الفيضان الذى يفد على بلادنا بالخير والبركة في منتصف الصيف من كل عام . . .

وقد أدركت بريطانيا منذ احتلت مصر والسودان ، ما للنيل الأزرق وبحيرة تسانا من أهمية في بلادنا ، لا من حيث أثره الزراعى في الجزء الواقع شمال الخرطوم من وادى النيل فحسب ؛ بل من حيث أثره في زراعة القطن التى تغذى مصانع لانكشير ؛ ولعلها لاحظت إلى جانب هذه الأهمية ، ما يمكن أن يكون لهذا النهر من أثر في إمكان اتخاذه وسيلة في بعض الظروف السياسية للضغط على مصر والسودان ، باعتباره شريان الحياة في البلاد . . .

وفي ظروف مختلفة ، منذ سنة ١٩١٩ إلى اليوم ، تردد اسم بحيرة تسانا عدة مرات على ألسنة السياسيين في مصر وبريطانيا ، وعلى أفواه الهاتفين في المظاهرات السياسية لبعض المناسبات في العواصم المصرية . . .

فلما كانت سنة ١٩٥٢ ورأت بريطانيا نفسها فى وضع سياسى بالنسبة لمصر يفرض عليها أن تقوم ببعض المناورات ، بدأت تذكر بحيرة تسانا مرة أخرى ؛ وكانت مصر فى ذلك الوقت ، تقوم بمباحثات مع حكومة النجاشى فى شئون تتصل بمياه النيل الأزرق والبحيرة التى ينبع منها ؛ ولأمر ما ، لم تجد الحكومة المصرية يومئذ من حكومة النجاشى استجابة أو إقبالا على هذه المباحثات ؛ وفى ذلك الوقت ، تقدمت الحكومة البريطانية إلى مصر تطلب أن يكون لها رأى فى هذه المباحثات الجارية بين مصر والحبشة ؛ وكان طلباً غريباً حمل مصر على أن تسأل بريطانيا : وماذا يعنىك من أمر بحيرة تسانا والنيل الأزرق ، ومن المباحث التى تدور حولها بين الحكومتين الشقيقتين ؟ فكان جواب بريطانيا أنها تريد أن تشترك فى هذه المباحثات لمصلحة السودان . وكان جواباً أبعد فى الغرابة من الطلب نفسه ، فإن السودان لأهله لا لبريطانيا ، ومصلحته هى مصلحة مصر الشقيقة نفسها ؛ فإن جاز لأحد أن يتحدث باسم السودان غير أهله فهو مصر لا بريطانيا ، التى تفرض نفسها وصياً فضولياً فيما لا يعنىها من شئون الأمم الأخرى . . .

وقد وقفت تلك المباحثات يومئذ بين مصر والحبشة حول هذا الموضوع فلم تنته إلى نتيجة ؛ ثم دخل الموضوع فى طور جديد ؛ إذ بدأت الولايات المتحدة — عن طريق مشروع المساعدات الفنية « النقطة الرابعة » — تحوم حول بحيرة تسانا ، لتبدأ دراسة من نوع معين ، تتصل بطبيعة الأرض فى تلك المنطقة ، وما يمكن أن يقام فيها من

مشروعات ؛ ووصلت أول بعثة لهذا الغرض من مكتب إصلاح الأراضي بالولايات المتحدة ، إلى أديس أبابا ، في ٦ أبريل سنة ١٩٥٢ ، ولم تكن مباحث هذه البعثة قاصرة على نوع من المشروعات دون غيره في حوض النيل الأزرق وبحيرة تسانا ، بل شملت أنواعاً عدة ، من حيث طبيعة الأرض ، ومدى صلاحيتها للتوسع الزراعى ، وقوة تدفق المياه ، وإمكان توليد القوى الكهربائية ، ووسائل إنشاء مجال صناعى أمريكى تُستخدم فيه هذه القوى الكهربائية .

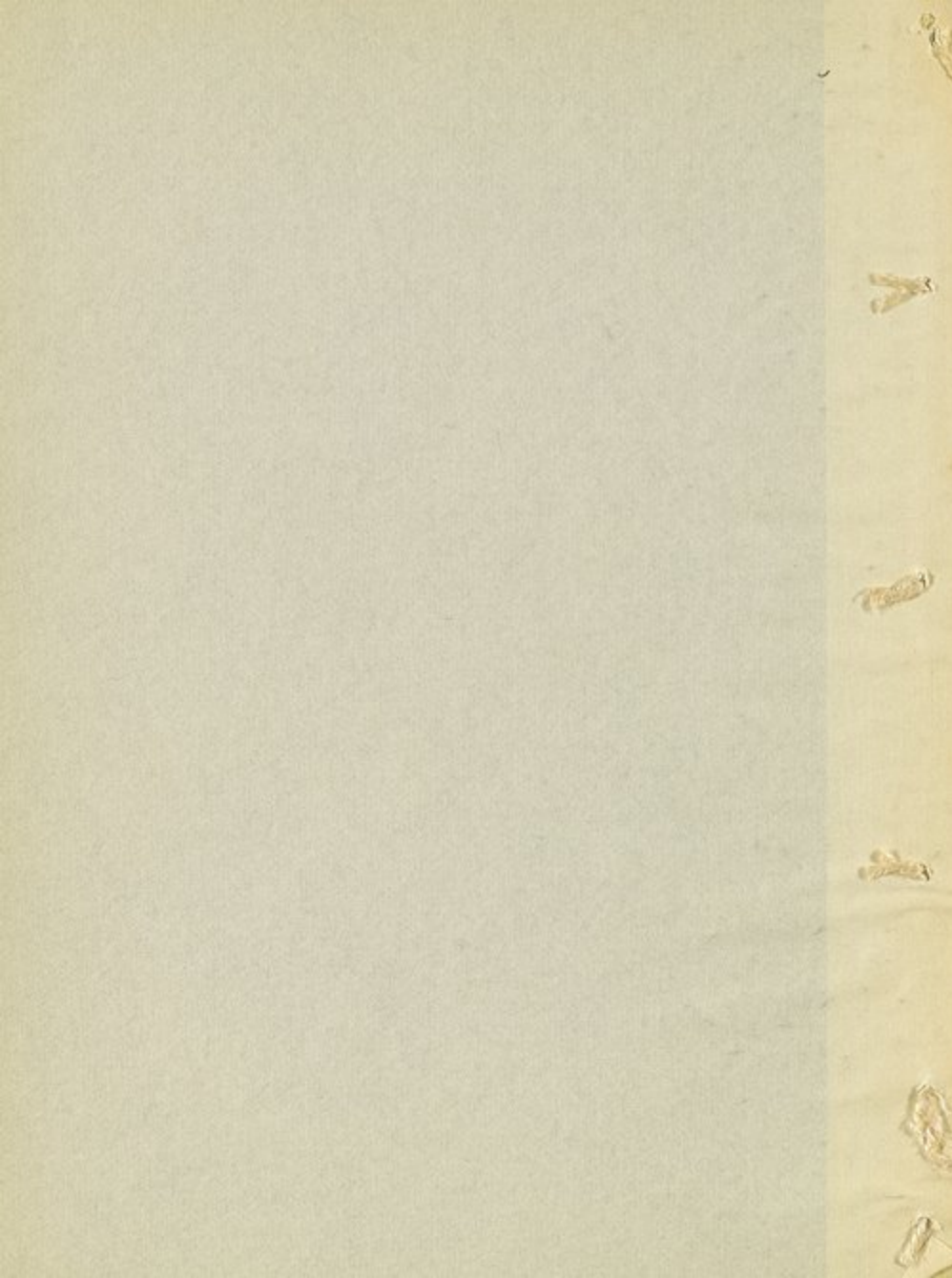
وقد قدمت هذه البعثة تقريرها فى أصلى وملحق ، فى أغسطس سنة ١٩٥٢ ، وبدأت « النقطة الرابعة » بتنفيذ بعض ما تضمنه ذلك التقرير من توصيات . . .

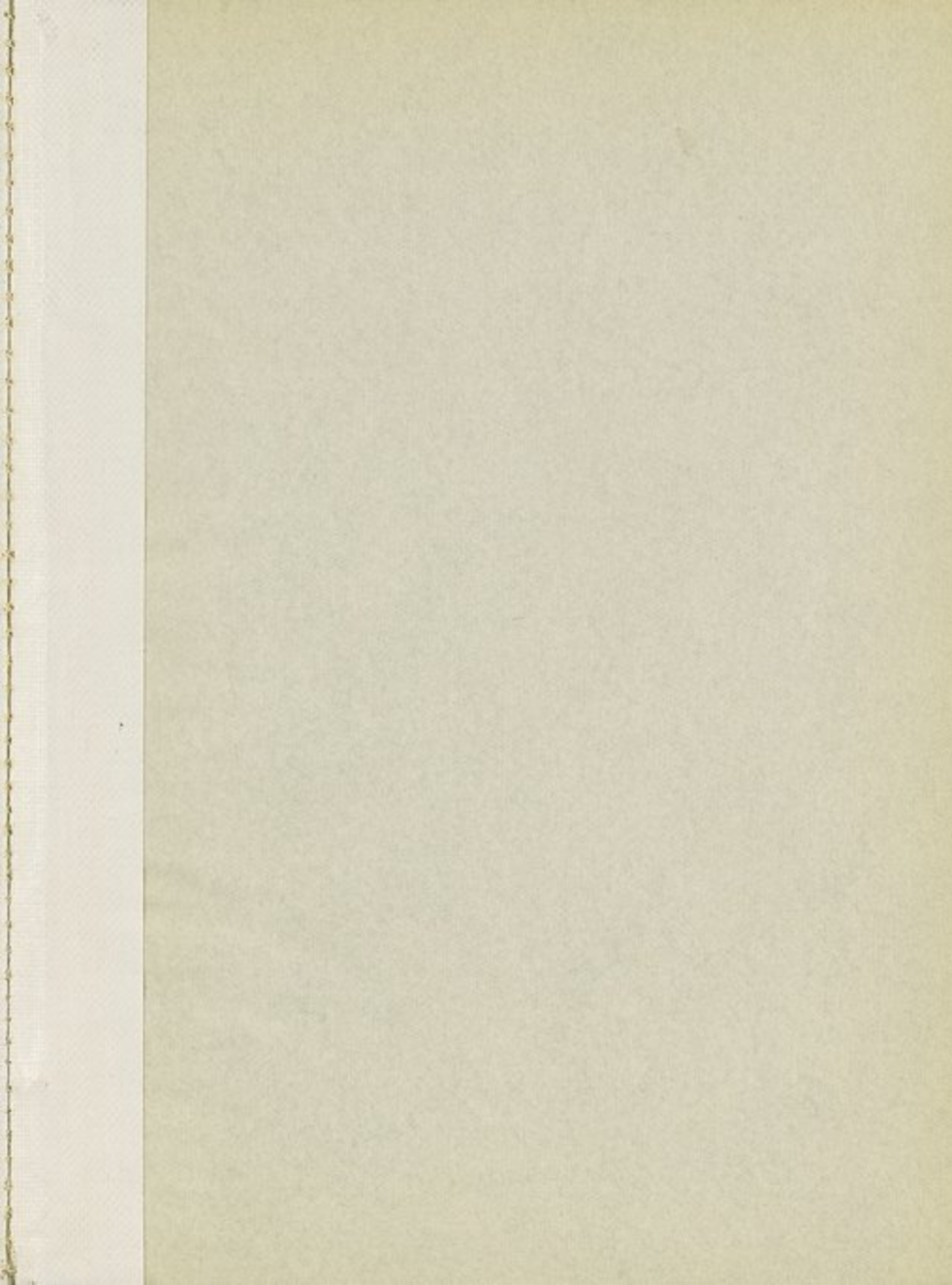
وكان من بين ما قرره البعثة ، ضرورة « عمل دراسات شاملة لمشروعات نهر النيل » وإعداد الاتفاقيات اللازمة لتوزيع مياهه بين مختلف البلاد التى يمر بها ؛ كما كان من بين الدراسات ، مشروع لإنشاء خزانات على روافد النيل الأزرق الواقعة بين بحيرة تسانا وحدود السودان ، للاستفادة بمياهها فى القطر الحيشى نفسه . . .

ومنذ ذلك التاريخ ، بدأت الولايات المتحدة الأمريكية — ومن ورائها بريطانيا — تتحدث عن ضرورة « عمل دراسات كاملة لكافة مشروعات النيل » وهى دراسة تستغرق من خمس إلى عشر سنوات قبل محاولة تنفيذ أى مشروع من مشروعات الرى فى مصر والسودان ؛ وهى نغمة جديدة قد انكشفت بواعثها واتضح أهدافها الاستعمارية البعيدة . . .

واليوم إذ ترد الأنباء من غرب الأطلسي بما كان لزيارة الإمبراطور هيلاسلاسي للولايات المتحدة من آثار تتحدث عنها الصحف الأمريكية وتسترسل في الحديث بسبيلها عن المساعدات الضخمة التي تقدمها الولايات المتحدة للحبشة ، ومنها منحة ٢٠٠ مليون جنيه - يمكن أن يتساءل الأحرار في كل قطر عربي أو أفريقي بقلق : ما ثمن كل هذه المساعدات لبلاد مثل الحبشة في وضعها الراهن ؟

وقد يكون جواب هذا السؤال قريباً جداً ، ولكنه - على أى حال - غير الجواب الذي تنتظره بريطانيا والولايات المتحدة ؛ لأن الوعي الإنساني الجديد في العالم كله ، يأبى منذ اليوم أن تباع المرافق الوطنية العامة إلى الأجانب بمال !





LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY



32101 074328624

الكتاب التالي
من مجموعة اخترنا لك
البترو
والسياسة العربية

يصدر في
أول سبتمبر ١٩٥٤

الطابع والناشر
دار المعارف بمصر

ثمان النسخة
١٠٠ غوليس